

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحُكْمُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

الجزء العشرون

الصف الثاني عشر
وعلم في مستوى



الطبعة الأولى

إمدادك خاص من
Y **kuwait.net**
منتديات باكويت



وزارة التربية

تَقْسِيرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

الْجَزْءُ الْعَشْرُونُ

الصف الثاني عشر

وَمَا فِي مُسْتَوَاهٍ

تأليف

محمد محمد عبدالحليم الشيخ (مشرفاً)

ستـ السيد عمارـة إبراهيم محمود الغمراوي

الطبعة الأولى

١٤٢٩ هـ

٢٠٠٨ - ٢٠٠٩ م

حقوق التأليف والطبع والنشر محفوظة لوزارة التربية قطاع البحوث التربوية والمناهج
إدارة تطوير المنهج

الطبعة الأولى ١٩٩٠ / ٨٩
م ١٩٩٤ / ٩٣
م ١٩٩٧ / ٩٦
م ٢٠٠٠ / ٩٩
م ٢٠٠٢ / ٢٠٠١
م ٢٠٠٣ / ٢٠٠٢
م ٢٠٠٥ / ٢٠٠٤
م ٢٠٠٧ / ٢٠٠٦
م ٢٠٠٩ / ٢٠٠٨

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

محتوى الكتاب

الصفحة

الموضوع

٧

المقدمة

٩

سورة التعل

٤٣

سورة القصص

١٢٣

سورة العنكبوت

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، وأشهد
أن لا إله إلا الله الذي جعل في السماء بروجًا، وجعل فيها سراجاً وفراً
منيراً ونصلي وسلم على من أرسله بالهدى ودين الحق، ليظهره على
الدين كله، وجعل له من لدنك سلطاناً تصيرأ.
أما بعد:

في هذا تفسير للجزء العشرين من كتاب الله الكريم، راعينا فيه
الإيجاز بلا إخلال والتفصيل عند الحاجة بلا إملال، مع الحرص على
سهولة العرض، ووضوح العبارة والالتزام بمنهج السلف الصالح في
التفسير بالتأثر، فإن لم نجد ففي لغة العرب متسع للباحث الصبور، فإن
القرآن نزل بلغة العرب كما قال تعالى:
**وَكَذَلِكَ أُوحِيَنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أَمَّا الظَّرَفُ وَمَنْ حَوْلَهُ
وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمِيعِ لَا زَبَبَ فِيهِ ۝ ۱۱۰**

فتسأل الله أن يتقبل منا حملنا هذا، ويجعله في حساننا، وينجاوز
برحنه عن سباتنا، وتسأله سبحانه أن يتفع به كاته وقاربه ومن أعوان
عليه ..

والحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

المؤلفون

سورة «النمل» مكية
وآياتها ثلاث وتسعون

التمهيد :

سورة النمل مكية ، وهي إحدى ثلاث سور نزلت متالية ، ووضعت في المصحف متالية وهي : «الشعراء» ، والنمل ، والقصص» ويكاد يكون منهاجها واحداً ، فقد اشتملت هذه السورة - كغيرها من السور الثلاث - على فحص يصور في جلاء مواقف توضح الموازنة بين موقف الشركين في مكة وموقف غيرهم من الأمم السابقة ، وذلك للعبرة والعظة .

والموضع الرئيس للسورة - كسائر السور المكية - هو العقيدة : الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعذاب ، والإيمان بالروحى ، وأن الغيب لله لا يعلمه سواه ، وأن الحول والقوة لله وحده .

وتتناولت السورة القرآن العظيم ، معجزة محمد الكبرى فوضحت أنه تنزيل من حكيم عليم .

وتأتي الفحص لتأكيد هذه المعانى ، وتصوير عاقبة المكذبين ، وعاقبة المؤمنين .

ففي السورة حلقة من قصة «موسى» - عليه السلام - تحكى رؤيته للنار وذهابه إليها ، ونداءه من الله ، وتکلیفة الرسالة إلى فرعون وملته ، وتسوق الآيات خبر تکذیب فرعون ومن معه ، وعاقبة هذا التکذیب وكذلك شأن شرکي مكة مع القرآن الكريم .

وفي السورة إشارة إلى نعم الله على داوده «وسليمان» وقصة سليمان مع «اھدھد» «والنملة» ومع ملکة سبا . وفي قصة «سليمان» مع «بلقيس» عبرة لأصحاب الجاه والسلطان ، فقد أخذ الملك وسيلة للدعوة إلى الله ،

فلم يترك حاكماً جائراً ولا ملكاً كافراً إلا دعاه إلى الله، وهكذا كان شأنه مع «بلقيس» حتى جاءت مع جندها خاضعة مسلمة، مستجيبة لدعوة الرحمن.

وينلي ذلك قصة «صالح» - عليه السلام - مع قومه «ثمرود» وتأمر المفسدين عليه، وتبيتهم قتلها، ولكن الله يبارك التآمررين، وينجي صالحاء ومن آمن معه «فَلَمَّا كَبُرُوا مِنْهُمْ أَخْرَجْنَاهُمْ خَارِقِيَّةً إِنَّمَا ظَلَمُوا هُنَّا وَكَانَتْ قَرِيبَةٌ تَأْمِرُ عَلَى قَتْلِ الرَّسُولِ - حَصَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتُبَيِّنَتْ لَهُ كَذَلِكَ، وَيَعْلَمُونَ وَيَعْلَمُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَذَكُورِينَ»^(١).

وتأتي في خاتمة القصص قصة «الوط» - عليه السلام - وإجماع قومه على إخراجها ومن معه من المؤمنين، لأنهم أناس يتعلمون.

ولقد همت قريش أن تخرب «محمدًا» - حصل الله عليه وسلم - من مكة قبل الهجرة.

وقد سمعت سورة النمل؛ لأن الله تعالى ذكر فيها قصة النملة التي وعظت بني جنسها، ثم اعتذررت من سليمان وجندوده، ففهم النبي الله كلامها، وتبسم من قوتها، وشكر الله على ما منحه من الفضل والإنعام. «فَتَبَسَّمَ حَسَرَحَكَامِنْ قَوْهَهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزَغَنِيْ أَنْ أَشْكُرْ بِعِمَنِكَ أَتِيْ أَنْعَمْتَ عَلَى وَعْلَى وَلِدَى وَإِنْ أَعْمَلْ حَسَلَحَا تَرْضَهَا وَادْخَلَهَا يَرْجِنِكَ فِي عِبَادَةِ الْمُتَلِعِينَ»^(٢).

* * *

(١) سورة النمل / ١٩

(٢) سورة الأعراف / ٣٠

(٣) سورة النمل / ٤٦

الآيات من الآية ٦٦ - إلى الآية ٥٦
من سورة «النحل»:

* فَاسْكَنْ جَوَابَ

قُرْمِيَةَ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّرْجُوَا هَذَا لَوْرَطَ مِنْ قَرِينَكُمْ إِنَّهُمْ
أَنَّاسٌ يَنْعَلَهُونَ ⑤٧٣ فَأَنْجَبَتْهُ وَاهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَهُ
قَدَرَتْهَا مِنَ الْغَلَبِرِينَ ⑤٧٤ وَامْتَرَنَا عَلَيْهِمْ مُطْرَأً فَأَهْ
مْطَرُ الْمُنْدَرِينَ ⑤٧٥ فُلِّ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ
الَّذِينَ أَصْطَلَفُوا هُنَّ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَا يُشْرِكُونَ ⑤٧٦ أَمْنٌ خَاقَ
الْمَوْتٍ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَا كَانَ فَاتَّبَعْتُمْ
يَهُ، حَدَّا إِنَّ دَاتَ بِهِجَةَ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا بَعْرَهَا
أَوْكَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ⑤٧٧ أَمْنٌ جَعَلَ
الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلْلَهَا أَنْهَرًا وَجَعَلَ هَارَقَبِيَ
وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِرًا أَوْكَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَنْكَرُهُمْ

لَا يَعْلَمُونَ ⑤ أَمْنٌ يُحِبُّ الْمُضطَرُ إِذَا دَعَاهُ وَيُكْثِفُ
 الْأُثْرَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضَ أَوْلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا
 مَا تَذَكَّرُونَ ⑥ أَمْنٌ يَهْدِي يَكْرِهُ فِي ظُلْمِنَتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
 وَمَنْ يُرِسِّلُ أَرْبَعَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيِ رَحْمَتِهِ أَوْلَهُ مَعَ اللَّهِ
 تَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُسْرِكُونَ ⑦ أَمْنٌ يَبْدُوا الْخَلَقَ ثُمَّ يَعِدُمُ
 وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَوْلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ
 هَاتُوا بِرْهَنَتُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ⑧ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ
 فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ
 أَيَّانَ يَبْعَثُونَ ⑨ بَلْ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ
 فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا تَحْمُونَ ⑩

«معاني الكلمات والجمل»

يَنْزَهُونَ أَنفُسَهُمْ، وَيَبْعَادُونَ عَمَّا تَفْعَلُهُ،
 وَيَرْعَمُونَ أَنَّهُ مِنَ الْقَادِرَاتِ.

فَتَرَنَا هَا مِنْ : فَضِيلًا وَحَكْمًا عَلَيْهَا أَنْ تَكُونَ مِنَ الْبَافِينَ فِي
الْغَايَرِينَ العَذَابِ.

فَإِنَّمَا مَطْرَ الْمَذَرِينَ : فِي شَذِّ الْمَطْرِ مَطْرُ الَّذِينَ أَنْذَرْهُمُ اللَّهُ عَقَابَهُ،
لَقَدْ كَانَ يَنْزَلُ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً وَصِواعِقَ مدْمِرَةً.

الَّذِينَ احْسَلُفُوا : الْأَنْبِيَاءُ وَالرَّسُولُ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - الَّذِينَ اخْتَارُوهُم
اللَّهُ لَهُمْ حَمْلُ رِسَالَتِهِ وَتَبْلِغُ دُعَوْتِهِ.

حَدَّثَنِي ذَاتُ بَهْجَةٍ : بَشَّارَنِينَ دَاتَ حَسَنٍ وَرَوْنَقٍ يَتَهَجَّبُ بِهَا مِنْ رَاهِنَاهَا.
مَا كَانَ لَكُمْ : لَا يَنْأَى لَكُمْ، وَهُوَ مُسْتَحْلِلٌ عَلَيْكُمْ
يَعْدَلُونَ : يَمْبَلُونَ، وَيَنْحَرِفُونَ عَنِ الْحَقِّ وَالتَّوْحِيدِ إِلَى الْكُفْرِ
وَالضَّلَالِ.

جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا : سُوَاهَا وَجَعَلَهَا مُسْتَقْرَأً وَسَكَنًا لَكُمْ .
رَوَاسِي : جَمَالًا ثَوَابَتْ، تَحْفَظْ تَسَاوِيَ الْأَرْضِ فِي سُرْعَةِ
حَرْكَتِهَا وَدُورِانِهَا.

وَجَعَلَ بَيْنَ : جَعَلَ بَيْنَ النَّهْرِ الْعَذْبِ وَالْبَحْرِ الْمَالِحِ فَاصْلَأَ يَنْعِنْعِ
الْبَحْرِيَّنِ حَاجِزًا اخْتَلَاطُهُمَا بِإِبْدَاعِ خَلْقِهِ، وَعَظِيمُ قُدرَتِهِ.

الْمُضْطَرُ : الَّذِي أَحْوَجَهُ الشَّدَّةُ، وَالْجَاهَةُ الضَّرَاعَةُ إِلَى اللَّهِ .
وَيَكْتُفِي الشَّوَّهُ : وَيَزِيلُ عَنْهُ أَسْبَابَ الْخُوفِ، وَيَرْدِهُ إِلَى الْآمِنِ
وَالسَّلَامَةِ.

خَلْقَاءُ الْأَرْضِ : مُتَصَرِّفُونَ فِي الْأَرْضِ، وَمُسْبِطُرُونَ عَلَيْهَا جِيلًا بَعْدَ
جِيلٍ .

قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ : قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ تَعْمَلُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأَيَّاَنَهُ تَذَكَّرُأُ
يَصْلَكُمْ بِاللَّهِ .

بشراً بين يدي : حاملة السحب مبشرة باللطف ، وهو رحمة الله إلى
رحمته عباده .

تعالى الله عنها : تزه رينا المستفرد باللوهية عن شرككم الذي
يشركون به ، وعبادتكم معه ما تعبدون .

هاتوا الدليل على وجود ما تزعمون من الشركاء .

أيام يبعثون : متى يقومون من القبور للحساب والجزاء .

اذارك علمهم : تدارك ، وتتابع عليهم في الفسق والضلال في
حقيقة الآخرة .

في ذلك : في حيرة عظيمة .

بل هم منها عمون : بل هم عنها في عمي فلباً وبصيرة .

* * *

الشرع

جزاء الانحراف عن الفطرة :

هذه بقية قصة لوط - عليه السلام - التي كانت بدايتها في نهاية
الجزء التاسع عشر وبدا الجزء العشرون قبل قيامها ، لأن الذين قسموا
القرآن إلى أجزاء ثلاثة لا حظوا العد اللفظي للحروف والكلمات
والآيات ، ولم يتذروا إلى ارتباط المعانى بعضها ببعض ^(١) ، ونسوق إليك
القصة فنقول : أنكر لوط - عليه السلام - على قومه انحرافهم عن الفطرة

(١) تفسير القراء في ج ٢٠ ص ٣

يأتينهم الرجال وترك النساء، وذلك شذوذ مخالف لما خلق الله الإنسان من أجله، فقد خلق الله الذكر والأنثى، وجهز كلًا منها بخلافها التذكر والتأنيث، وجعل ميل كل منها وسبلته للتزاوج، وبه يتم إشباع حاجة كل منها، ويتحقق من وراء ذلك الهدف الأسمى وهو التكاثر وتعمير الأرض.

سُبْحَانَ اللَّهِيْ ذَكَرٌ الْأَزْوَاجُ كُلُّهَا مِنْ أَنْتَبْتُ الْأَرْضَ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٦٧) (٢)

والانحراف عن ذلك شذوذ مخالف للقطرة، وهذا ما قاله لوط عليه السلام - فقد عجب من إياتهم هذه الفاحشة، وأخبرهم أن ذلك من الجهل والخمر فرفضوا هذا التوجيه الإلهي، وبلغوا إلى الإباء والعداوة، وقال بعضهم لبعض : أخرجوا لوطًا وأهله من قريتنا، واعتبروا سكانه بينهم منه ومكرمه عليه إذ قالوا : «من فرتكم» ثم قالوا : نهكموا سخرية «إنهم أناس يتغهرون» إنهم يتغهرون من هذا الرجل، ويعتبرون ما نفعه شذوذًا وفتنًا ، وفي ذلك دلالة على عدم شعورهم بما هم عليه من انحراف عن القطرة . ولكن الله الذي يحمي رسالته والمؤمنين نحي لوطًا ومن معه بقدرته إلا زوجته، فقد جعلها بتقديره وحكمته من الباقين في العذاب ، لأنها كانت توافق قومها على شذوذهم .

فأنزل الله عليهم مطرًا لا يحمل الإباتات والخير والحياة، وإنما يحمل حجارة مهلكة، فليس ذلك المطر الذي جعله الله أدلة عقاب وهلاك لمن أنذرهم على معصيتهم .

(٢) س/٣٦

ولعل في هذا الموقف تذيراً لذوي الشذوذ والانحراف حتى لا يتعرضوا للعقاب الله الذي يمهد ولا يهمل ، وهو حجة على البشرية جمعياً بأن الإسلام يدعوهم إلى ما يحفظ حياتهم ، ويصون كرامتهم ، ويبعد عنهم ما يفتت بصحتهم من الأمراض التي تكشف عنهم البحوث العلمية في عصرنا الحاضر مثل مرض «الإيدز» وهو أيضاً دليلاً صادقاً على إعجاز القرآن الكريم فالآية التي أباحت الشذوذ في المرضى تعانى الآن آثاره المدمرة على الفرد والجماعة ، وتتفق في درء خطره الأموال ، وصدق الله إذ يقول: **١- كِتَبَ اللَّهُ أَنْزَلَنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ٢- إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَفْوَمُ**

المسلم شاكراً الله على كل حال:

بعد أن قص الله - سبحانه وتعالى - على رسوله - صلى الله عليه وسلم - قصص الأنبياء السابقين وموقف أقوامهم معهم ، وما لاقوه من عنت ، وما حصل لهم به من معجزات ، وفي ذلك تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - وترويح عن نفسه ، وأن هذه طبيعة بعض البشر: يرفضون الخداية ، ويتأمرون على من يتصحّهم ، ويوجههم إلى الخير ، وفي ذلك أيضاً تثبيت له - عليه الصلاة والسلام - وشد من أزره وتأكيد من الله أنه معه برعاء ، ويأخذ بيده منها تطاول أهل مكة . بعد كل ذلك أمر الله تبارك وصلى الله عليه وسلم - أن يحمده، ويشكره على نعمه التي لا تعد ولا تحصى ، وفي ذلك تربية لكل مسلم أن يتوجه بالثناء والشكر لله على ما أعطاه من نعم ، كما طلب الله إلى رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن

(١) سورة الرعد آية ١٧

(٢) سورة الإسراء آية ٩

يسلم على أنبيائه الكرام الذين جاهدوا، وصبروا، وأدوا رسالة ربهم في قومهم، عرقاً يفضلهم، وأداءً حق تقدّمهم واجتهدتهم، وفي ذلك توجيه لكل مسلم أن يعرف قدر السابقين من العلماء المجتهدين، وأن يشفي عليهم، وأن يتبع على طريقهم، فرسالة الخير مختلة إلى أن يقضي الله أمره في عباده.

وفي هذه الآيات دعوة للمؤمنين إلى الاقتداء بالرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يفتحوا حديثهم ودعوتهم إلى الحق، وأن يختتموه بقولهم: «الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى».

الخالق للنعم أحق بالعبادة:

وبعد هذا الافتتاح شرع القرآن يوتيح المشركين ويتهمُم بأعمالهم وعبادتهم، وينهِمُم إلى ما هم عليه من الفساد والجهل إذ آثروا عبادة المخلوق وغيره على عبادة الله. «آتَاهُمْ خَيْرٌ أَمَا يُشْرِكُونَ» إن ما يشركونه مع الله تعالى من أحنتام أو ملائكة أو جن أو حلق، لا يرتقي أن يكون شيئاً يشبهها بالله تعالى فضلاً أن يكون خيراً منه، ولا يحمل المعنى مقارنة أو موازنة، بل هو تهمم محض إذ من البين أنه ليس فيما أشركونه به سجاته - شائبة خير حتى يوازن بينها وبين ما هو محض الشر، فهو من قبيل ما تقول العرب: «السعادة أحب إليك أم الشقاء؟» وجاء في بعض الآثار أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان إذا قرأ هذه الآية قال: «بل الله خير وأبقى، وأجل وأكرم»^(١).

الخالق للسموات والأرض أحق بالعبادة

ويستقبل القرآن الكريم بأسلوب التكثيت للمشركيين موجهاً أنظارهم وعقوهم إلى مشهد من مشاهد الكون التي يصر وتها بالعين فيقول:

﴿أَمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْبَعْدِ مَا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ
حَدَّا يَقْ دَأْتَ بِهِجَةَ مَا كَانَ لَكُرَانٌ تُبَيِّنُ أَشْرَهَا أَوْلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ
يَعْدِلُونَ﴾، أ العبادة الأحسان وغيرها خير أم عبادة من خلق السموات - على ارتفاعها وصفاتها وما بها من كواكب - وخلق الأرض ، وجعل فيها الجبال والأنهار؟ . هذا الخلق الذي يدو فيه القصد ، ويتبين في التدبر ، ويظهر فيه التماقى الذي لا مجال فيه للصادفة كغافل باللزم الحجة ، وإفحام المشركيين . ملجم بذاته إلى الإقرار بوجود الخالق الواحد . وفي ذلك تبيه للإنسان إلى إعمال عقله والتضرر إلى ما فوقه وما تحته ، وما يحيط به وحيث أنه يقر بأن الله وحده هو المستحق للعبادة، ثم يوجه القرآن نظر الإنسان إلى فضل ربه عليه بما أمنه من وسائل تحفظ عليه حياته ، وتحده بباب الاستقرار والأمن ، فله ينزل المطر من السماء بالقدر الذي يكتب للأرض الحياة فتنبت الزرع والشجر والثمر والحدائق التي تسر العين ، وتزيّن النفس ، ولو لا ما نبت الشجر ، ولا ظهر الثمر . ومن يتأمل بعقله يدرك أن الله هو وحده الخالق فلا ينحرف ، ولا يعدل عن عبادة الله إلى عبادة غيره .

الله خلق الأرض على هيئة تحقق الحياة خلقه :

﴿أَمْنَجَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ حَلَّلَهَا أَتْهِرًا وَجَعَلَ لَهَا رُزْقًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِرًا﴾ وعدها مشهد ثان يكشف عن حقيقة في الكون وهي الهيئة التي خلق الله الأرض عليها، فقد جعلها مستقرة صالحة للحياة، ولو تغير مكانها من الشمس والقمر، أو تغيرت عناصرها أو سرعتها حول نفسها، أو سرعة دورتها حول الشمس، أو سرعة دورة القمر حولها، لو تغير شيءٌ من ذلك ونحوه لما كانت الأرض صالحة ومستقرة للإنسان والدواب والحيوان. والله الخالق بحكمة جعل فيها آثاراً تندد بالإنسان والحيوان بالحياة، فعنها تشرب وتنقي الانعام والمزارع، ثم تشاهد في الآية تلك المقابلة بين الانهار الجارية والحيوالتي ثبتت الأرض حتى لا تغيد ولا تصطرب. ويشير القرآن إلى قدرة الله، فقد جعل سبحانه بين المياه العذبة والماء الحامض حاجزاً يمنعهما من الاختلاط بما أودع في كل منها من خصائص تجعل البحر لا يطغى على النهر، فكتافة النهر أخف من البحر، فمن فعل ذلك؟ إله مع الله؟ بل أكثرهم لا يعلمون قدر ربهم، ولا يعلمون أيضاً ما هم عليه من خسال وأضطراب في إشراكهم، وما لهم من نفع واستقرار في إفرادهم ربهم بالآلوهية والعبادة.

لا يرفع البلاء إلا الله :

ويزيد القرآن الكفار توبيقاً موجهاً نظرهم إلى مشهد ثالث، وهو حالة القصف البشري أمام الأحداث الشديدة التي تتسبّب الناس جميعاً، فلا يجدون منها كثفاً ومحرجاً إلا بالضراعة إلى الله :

**وَمَنْ يُحِبُّ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيُكَثِّفُ الْوَءَ وَيَجْعَلُكُمْ خَلْفَهُ
الْأَرْضَ أَوْلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ.**

امن تشركواه مع الله خير، ام من يحب المكروب والمهروم الذي تنزل عليه نازلة، او يصبه مرض، فيلجأ إلى مصدر القوة، يطلب النجدة بالتضليل إلى الله، ليرفع عنه البلاء، ويكشف السوء، فهو الذي يحب المضطرب إذا دعاه وهو الذي يجعل الناس يتوارثون الأرض جيلاً بعد جيل.
«الله مع الله» يفعل لكم كل ما سبق .. ١٩٠

جاء رجل إلى مالك بن دينار فقال: أسلك يا الله أن تدعولي ، فأنما مضطرب قال : «إذا فاسأله ، فإنه يحب المضطرب إذا دعاه»^(١) ، وفي صحيح مسلم أن النبي - حصل الله عليه وسلم - قال لعاذ لما واجهه إلى أرض اليمن : «اتق دعوة المظلوم ، فليس بينها وبين الله حجاب»^(٢)

ثم بين القرآن أن من طبيعة الإنسان أن يسىء فعل ربه عليه ، قليلاً ما يذكر نعم الله ، ومن ثم أشرك به غيره في العبادة .

الله هو الهادي لعباده :

ويسوق القرآن موقفاً رابعاً كائناً به نعمة أخرى من نعم الله على عباده «أَمْنَ يَهْدِي كُنْكَرٍ فِي ظُلْمَتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ بَرْسَلُ الرِّيحَ بُشَّرَّاً بَيْنَ بَدَى رَحْمَتِهِ»، أمن تشركواه مع الله خير، ام من يلهيكم الطريق الصحيح وأنتم تسلكون فجاج البر والبحر ، ففضلون إلى غاياتكم بالنجوم وبوسائل العلم التي وفقكم الله إلى ابتداعها كالنارات والآلات الرصد ، وتحمدون مفاوز البر ، حيث لا معالم تهديكم ، ولا زائد يصدقكم ويرشدكم ١١٩

(١) تفسير القراء في ج ٣٠ ص ٩
(٢) مسلم : كتاب الأئمة - باب الدعاء إلى الشهادتين

الله يرسل الريح ، ليشر بالمطر :

بل من يسرق الرياح والسحب من مكان إلى آخر ببشرة بالمطر
الذي تحمل فيه رحمة الله وهو سبب الحياة ؟ ، أيتمني بعد ذلك كله أن
يشرك بالله أصناماً وأوثاناً لا تهدي من ضلال ، ولا تكشف المسوء ،
ولا تحجب النفع ؟ تزه الله تعالى بذاته المفردة بالآلوهية المتصفة بجميع
صفات الجمال والكمال عن أن يكون له شريك في ملوكه ، أو الوهبة .

الله هو الخالق للإنسان :

وبعد القرآن بالإنسان الذي فعل ، وأشرك بالله في تحدى عرض
حقيقة وافعة وهي الخلق من العدم والعودة إلى الحياة بعد الموت من فعل
ذلك ؟ إنه الله الذي خلق الإنسان من العدم ، أقدر على أن يرده إلى الحياة
بعد الموت وذلك أهون عليه من الخلق ابتداء ، وهو ما لا تنكر ونه . ومن
الذى ينحكم من السماء الضوء والحرارة والمطر وكلها أسباب الحياة ؟
ومن الذي يرزقكم من الأرض النبات والحيوان والماء والهواء وكلها
ضرورة للحياة ؟ إنه الله وحده ، وعليكم أن تأتوا ببرهان وحججة تثبت أن
ما تعبدون من دون الله لها من صفات الآلوهية ما تستحق به العبادة إن
كتم صادقين فيما تدعون ، بل أنتم كاذبون ؛ لأن هذه الآلة لا تنفع ،
ولا نضر .

لا يعلم الغيب إلا الله :

وبعد أن ثبت القرآن الكريم بالشاهد المتعددة وحدانية الله ،
واختصاصه بالقدرة والرحمة ، أعقب ذلك بذكر لوازمه ، وهو اختصاصه
بسنانه بالغيب ، وفي ستر الغيب عن البشر رحمة من الله يعباده ؛ لأن

الغيب يتعلق بأمور الآخرة وأحوالها، وبشئون الدنيا التي لا تقع تحت حسنا وليت في مقدورنا، وهذا فللا يعلم أحد حتى يُشر من قبره، أو يجيء بعد موته، أو يُبعث؛ ليوق حسابه بين يدي عالم الغيب والشهادة.

إن الأسباب والدلائل على معرفة الآخرة صارت ضعيفة في نظر المشركين، فهم في جهل عميقاتها وهم في حيرة من تحفتها وجودها؛ بـل هم في عمى واحتلال بصيرة، بحيث لا يدركون أنها حق، ولا يدركون دلائلها.



الآيات من الآية ٦٧ - إلى الآية ٧٥
«من سورة النحل»

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
أَوْدَا كُنَّا تُرَبَّا وَإِبَاؤُنَا أَبْنَا الْمُخْرَجُونَ ⑥٧٣ لَقَدْ
وَعَدْنَا هَذَا تَحْنُونَ وَهَا أَبَاوْنَا مِنْ قَبْلٍ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْتِطِعُ
الْأَوَّلِينَ ⑥٧٤ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَنْقَبَةُ الْمُغْرِمِينَ ⑥٧٥ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ
فِي ضَيْقٍ يَمْكُرُونَ ⑥٧٦ وَيَقُولُونَ مَنْ هَذَا الْوَعْدُ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ⑥٧٧ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفَ
لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تُسْتَعْجِلُونَ ⑥٧٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ
عَلَى الْأَنْسَارِ وَلَكِنَّ أَعْكَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ⑥٧٩ وَإِنَّ
رَبَّكَ لِيَعْلَمُ مَا تُكِنُ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِمُونَ ⑥٨٠
وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ
مُبِينٍ ⑥٨١

«معان الكلمات والجمل»

أثدا كنا تراباً : أثدا متا، وأحببنا رفاتاً وعظاماً بالية، فهل
وآساؤنا أثنا سخرج من قبورنا، ونجيا مرة ثانية؟
لخرجون

لقد وعدنا هذا : لقد وعدنا محمد بالبعث كما وعد الأنبياء من قبله
نحن وآساؤنا آباءنا الأولين، فهو كان حقاً لحصل .
قبل

إن هذا إلا أساسطير : ما هذا إلا خرافات وأباطيل السابقين .
الأولين

سيروا في الأرض : تنقلوا في الأرض، وشاهدوا آثار المخلوقات
والعذاب .

عاقبة المجرمين : نهاية المكذبين .

ولا تكون في حدين : ولا تحمل المخرج والقم يستولي على نفسك، ويعلا
ما ينكرون صدرك من سوء تدبيرهم وكيدهم لك .
ردد لكم بعض : لفلكم وتبعدكم بعض ما تستعملون من العذاب .
الذي تستعملون

ما تكون صدورهم : ما تخفيه من الكفر والكيد لمحمد - صل الله عليه
وسلم - .

كتاب مبين : هو اللوح المحفوظ؛ وهو بينَ مَنْ نظر إليه، وفرا
فيه .

الشرح

إنكار الكافرین :

بعد أن ذكر الله عز وجل جهل الكفار بالآخرة، أوضح ذلك، وبيّنه بأنهم ينكرون الإخراج من القبور بعد أن صاروا تواباً، ونسوا أنهم خلقو أول مرة، ولم يكونوا من قبل شيئاً، ولا يدرى أحد أين كانت الخلايا والذرات التي تكونت منها هياكلهم الأولى، فمنها ما جاء من تربة الأرض، ومنها ما جاء من عناصر الهواء والماء، ومنها ما قدم من الشمس البعيدة وعندما ما تفتق إنسان أو نبات أو حيوان، ومنها ما أبعث من جسد زم، وتختبئ بعض عناصره في الهواء! ثم عثلت هذه الخلايا والذرات في طعام يأكلونه، وشراب يشربونه، وهواء يتفسرون به وشعاع يستدفون به. ثم إن هذا الشبت الذي لا يعلم عدده إلا الله، ولا يحصي مصادره إلا الله يتجمع في هكل إنسان، وهو ينموا من بويضة عالقة في رحم، حتى يصير جداً سجي في كفن. فهم كذلك في خلقهم أول مرة. فهل عجب أن يكونوا كذلك أو على نحو آخر في المرة الأخيرة؟

ثم قالوا في تهكم واستكبار: **لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا لَهُنْ وَإِبْأَوْنَاهُمْ قَبْلَ إِنْ هَذَا إِلَّا أُسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ**، إننا سمعنا بهذا من قبل، وسمع آباءنا، ولا نرى تحقق ذلك أيام أعيتنا، وأكدوا استبعادهم بقولهم: إن هذا الوعد ما هو إلا خراقة وكذب من خرافات السابقين، غافلين أن للساعة موعدها الذي لا يتقدم لاستعمال البشر، ولا يتاخر لرجائهم إنما يجيء في الوقت المعلوم له، المجهول للعباد. ولقد قال - حل الله عليه وسلم - جبريل -

عليه السلام - وهو يسأله عن الساعة: «ما المشول عنها بأعلم من السائل»^(١).

تهذيد ووعيد:

ثم يأمر الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - بـ«أن يرشدكم إلى الحق مع التهذيد والوعيد، وأن يقول هؤلاء المكذبين: سيروا في الأرض، فانظروا بأبصاركم وبصائركم فسترون آثاراً لقوم حف الله بهم وبديارهم الأرض بسبب تكذيبهم، فـ«ما حدث للمجرمين من قبل يحذث للمجرمين من بعد»؛ لأنها سنة الله التي لا تحيط، ولا تخال في كل من سلك طريقهم إن لم تتوياوا، وترجعوا عن تكذيبكم رسوله.

ثبتت للرسول صلى الله عليه وسلم، وتسرية عنه:

وأمام هذا الموقف يمد الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - بما يزيده قوة، ويبعد عنه الفم والحزن فيقول له: لا تحزن على هؤلاء المتكبرين ولا يضيق صدرك بمكرهم، فإن الله ناصرك عليهم، ومظهر دينك، وحافظك من شرهم ومكرهم وهذه الآية تصور حزن الرسول - صلى الله عليه وسلم - على مصير قومه الذي يعلمه من مصائر المكذبين قبلهم.

ثم تشير الآية بعد ذلك إلى إنكار المشركين للعذاب، فيسألون ساحرین: متى هذا العذاب؟ أخبرنا عنه يا محمد أنت ومن معك؟ فيجيء الرد بجملة الإنذار والوعيد: **قُلْ عَيْنَ أَنْ يَكُونَ رَدْفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تُسْتَعْجِلُونَ**، يأمر الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يخبرهم أن بعض العذاب سينزل بهم، وقد وقع لكم ما تستعجلون حلوله منه، وانت لا تشعرون، وهو ما حدث لكم من النكال والهزيمة يوم بدر.

(١) أخرجه مسلم - كتاب: الزندقان - باب: بيان الإيمان والإسلام والإنحراف

تأجيل العقاب فضل من الله ورحمة:

ثم يبن سبحانهه وتعالى - السبب في تأجيل عقاب الكافرين ، وأنه
تفضل منه ورحمة عسى أن يتوبوا إلى الله ، ويشردوا إلى الصراط المستقيم ،
ولكن كثيراً منهم لا يعرفون ، ولا يدركون هذه النعمة ، فلا يشکرون
الله ، بل يجحدون . « وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلمون »
والله - سبحانه - يهلك هؤلاء الكافرين ، ويؤخز العذاب عليهم ، مع علمه بما
تكه قلوبهم من عداوة وما تظهره ألسنتهم وأعياهم ، إنه إمهال عن علم
وفضل ، وهم بعد ذلك محاسبون .

وختتم هذا الموقف بالكشف عن علم الله الشامل ، الكامل فيقول الله
- سبحانه - « وَمَا مِنْ غَيْرَهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ » وما من
امر مكتوم وسر خفي يغيب عن البشر في السماوات والأرض إلا وهو في آم
الكتاب الذي أثبت ربنا فيه كل شيء ، والمراد به اللوح المحفوظ ، وفي
ذلك ثبات للرسول - حصل الله عليه وسلم - بـان الله يعلم ما يخفى هؤلاء
في قلوبهم من عداوة ، وما يظهرون من تكذيب ، لأنه - سبحانه وتعالى -
يعلم ما يغيب عن الناظرين ، وما يخفى عليهم في السماوات والأرض ، فقد
أثبته ربنا في اللوح المحفوظ .

* * *

إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ
 أَكْفَرُ الَّذِي هُمْ بِهِ يَخْتَلِفُونَ ۝ وَإِنَّهُ لَهُ دُرْجَاتٌ
 لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ إِنَّ رَبَّكَ يَقْعُضُ بِنَهْمٍ مُّحْكَمٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ
 الْعَلِيمُ ۝ فَوَكَّلْتُ عَلَىٰ اللَّهِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ الْمُبِينِ ۝
 إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْغَوَّةَ وَلَا تُسْمِعُ الْعَصَمَ الدُّعَاءَ إِذَا
 وَلَوْا مُدَبِّرِينَ ۝ وَمَا أَنْتَ بِهِدِي الْعُυْنَىٰ عَنْ ضَلَالِّيْمِ
 إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّنَا فَهُمْ سَلِيمُونَ ۝
 * وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَنْجَحْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ
 الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا يَعَايِثِنَا لَا يُوْقِنُونَ ۝
 وَيَوْمَ تُحَشَّرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوَجَاءُنَّ يُكَذِّبُ بِرَبِّنَا
 فَهُمْ يُوْزَعُونَ ۝ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ وَقَالَ أَكَذَّبْتُ بِرَبِّنِي
 وَلَرَّجِعُوكُمْ إِلَيْهَا إِنَّمَا ذَانِكُمْ تَعْمَلُونَ ۝ وَوَقَعَ

الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ يَا ظَلَّمُوا فُهْمٌ لَا يَنْعِطُقُونَ ⑤٦
بِرُوا أَنَا جَعَلْنَا الْيَلَى لَيْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارُ مُبْصِراً إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَا يَنْتَ تَقْوِيرٌ بِوْمُونَ ⑤٧ وَيَوْمٌ يُنْفَخُ
فِي الصُّورِ فَقَرْزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَنْوَهٍ دَاهِرِينَ ⑤٨ وَتَرَى
الْمَيَالَ تَحْتَهَا جَامِدَةً وَهِيَ خَرَّمَ الْحَابِ صُنْعَ
اللَّهِ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ عَمَّا تَفْعَلُونَ ⑤٩
مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ قَرْزَعٍ يَوْمَ يُبَدِّلُ
عَمَّا امْتُنُونَ ⑥٠ وَمَنْ جَاءَ بِالْسَّيِّئَةِ فَكَبَّتْ وُجُوهُهُمْ
فِي آثَارِهِلَّ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ⑥١
إِنَّمَا أَمْرَتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَمَهَا
وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرَتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُعْلَمِينَ ⑥٢
وَإِنَّمَا أَنْتُمْ مُؤْمِنُونَ ⑥٣ وَإِنَّمَا أَهْدَى هَذِهِ الْأَنْوَافِ
وَإِنَّمَا أَنْتُمْ مُؤْمِنُونَ ⑥٤

وَمَنْ خَلَقَ فَقُلْ لِأَنَّمَا أَنَّا مِنَ الْعَنْدِرِينَ ⑤٦ وَقُلْ
 الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيِّدِ الْعِزَّةِ إِذَا هُنَّ فَغَرِقُونَهَا وَمَا رَبُّكَ يَغْفِلُ
 عَنْ تَعْلُوْتِ ⑤٧

معاني الكلمات والجمل

يقْضِي عَلَى بَنِي : يَبْيَنُ لِأَهْلِ الْكِتَابِ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ
 إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي كَانُوا يَخْتَلِفُونَ فِي أَمْرِ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .
 هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

يَقْضِي بِبَيْتِهِمْ : يَفْعَلُ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحُكْمِهِ
 بِحُكْمِهِ الْعَادِلِ ، وَقَضَائِهِ الْمُبِينِ .

الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ : الَّذِي لَا يَرْدِدُ حُكْمَهُ وَقَضَاؤُهُ ، الْعَلِيمُ بِأَفْعَالِ الْعِبَادِ
 وَأَقْرَاهُمْ .

تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ : فَوْضُنَ إِلَى اللَّهِ جَمِيعُ أَمْوَالِكَ ، وَاعْتَدِ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ
 شَؤُونِكَ .

الْحَقُّ الْمَيْنَ : الَّذِينَ الْحَقُّ ، الْوَاضِعُ الْمَيْنَ
 وَلَوْا مَدِيرِينَ : تَوَلَّوْا عَنِّكَ مَعْرِضِينَ .

وَمَا أَنْتَ هَادِي : لَا تَسْتَطِعُ أَنْ تَصْرِفَ عَنِّي الْقُلُوبَ عَنْ كُفْرِهِمْ
 الْعَمَيِّ عَنْ وَضْلَالِهِمْ .
 ضَلَالُهُمْ

إن تسمع ألا من : إنما يستحب لدعوك أهل الإيمان الذين خضعوا
بؤمن بآياتنا فهم لربهم ، وأسلموا وجوههم للرحمن ،
مسلمون

ووقع القول عليهم : حدث مادل من الآيات على بحث ، الساعة .
آخر جنـا هـم دـاهـة : أخر جنـا لـلكـفـارـ هـذـهـ الـآـيـةـ تـسـيـهـمـ ، وـتـخـبـرـهـمـ آـنـهـمـ
ـمـنـ الـأـرـضـ كـانـوـاـ لـاـ يـصـدـقـوـنـ بـآـيـاتـ اللهـ .
ـنـكـلـمـهـمـ أـنـ النـاسـ
ـكـانـوـاـ بـآـيـاتـناـ
ـلـاـ يـوـقـنـوـنـ

ـتـحـشـرـ : تـجـمـعـ .
ـلـوـجـاـ : جـمـاعـةـ .

ـبـوـزـعـوـنـ : يـدـفـعـوـنـ ، وـيـسـاقـوـنـ بـعـنـفـ .
ـحـنـىـ إـذـاـ جـاءـوـاـ : حـضـرـ وـمـوـقـفـ الـحـسـابـ وـالـرـزـالـ .
ـأـكـذـبـتـمـ بـآـيـاتـيـ وـلـمـ : أـكـذـبـتـمـ بـآـيـاتـيـ المـرـلـةـ عـلـىـ رـسـلـيـ وـلـمـ تـدـرـكـوـاـ حـقـيقـةـ
ـتـحـبـطـوـاـ يـاـ عـلـىـ كـهـبـاـ .
ـأـمـ مـاـذـاـ كـنـتـمـ : أـيـ شـيـءـ كـتـمـ تـعـمـلـوـنـ فـيـ الدـنـيـاـ غـيـرـ التـكـذـبـ .
ـتـعـمـلـوـنـ

ـوـقـعـ القـوـلـ عـلـيـهـمـ : بـهـتـوـاـ ، قـلـمـ عـجـبـوـاـ ، وـحـقـ عـلـيـهـمـ العـدـابـ .
ـبـاـ ظـلـمـوـاـ : بـسـبـ تـكـذـبـهـمـ آـيـاتـ اللهـ .
ـلـاـ يـنـطـقـوـنـ : لـاـ يـتـكـلـمـوـنـ ؟ لـاـنـهـ لـاـ حـجـةـ لـهـ .
ـلـمـ يـرـوـاـ ؟ : أـمـ يـعـلـمـوـاـ ؟
ـلـيـسـكـنـوـاـ فـيـهـ : لـيـنـامـوـاـ ، وـيـسـرـجـوـاـ فـيـهـ مـنـ تـعـبـ الـحـيـاةـ .

مبصرًا	: نيراً شرقاً، يصرون به طرق السعي في طلب الرزق.
الصور	: البوّاق الذي يفتح فيه.
فرع	: الفرع الخوف والمقصود به هنا الخوف المفضي إلى الموت.
داخرين	: أدلاء صاغرين.
جامدة	: ثابتة في أماكنها لا تتحرك.
وهسي قرْ مَرْ	: تسير كأنها السحاب في سرعته.
السحاب	
وهم من فرع يومئذ	: وهم من خوف ذلك اليوم العصيب أمنون.
آمنون	
نُكِبَتْ وجوههم في	: ألقوا في النار على وجوههم.
النَّار	
البلدة	: مكة.
الذى حرّمها	
وله كُلُّ شيء	: الذي جعلها الله حراماً آمناً، لا يسفك فيها دم.
المُنذَرِين	: ولا يظلم فيها أحد.
سيريكم آياته	: والله كل شيء، ملكاً وخلقاً وتصريفاً.
وما رأيتك بعاقل عما	: المبلغين للدعوة، والمخوفين من عقاب الله.
تعملون	: سيريكم آياته الدالة على عظيم قدرته وسلطانه.

* * *

الشرح

القرآن الكريم هو الفصل :

إن هذا القرآن كتاب الله الحق بما أخبر من آيات بینات ، فقد جاء حكماً علىبني اسرائيل يفصل بينهم فيما اختلفوا مع النصارى في أمر المسيح - عليه السلام - ويفصل بين النصارى أنفسهم فيما ادعوه على المسيح - عليه السلام - وعلى أمه مريم فقال سبحانه وتعالى مخاطباً إياها هم جميعاً : **يَتَأَلَّ الْكِتَابَ لَا تَغُلوْا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا
الْحَقُّ إِنَّمَا الْمُسْبِحُ عَبْسَى أَبْنُ مَرِيمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ قَنَهَا إِنْ
مَرِيمَ وَرُوحُ مِنْهُ** ^(١).

فاليهود كذبوه، وزموا أمه بالزنا، وحاولوا قتلها وصلبها، والنصارى صدقوه، ثم أثروه حتى قالوا : إنه إله، أو ابن الإله، أو ثالث ثلاثة، وكان على أهل الكتاب وقد سمعوا القول الفصل والقضاء العادل في هذه القضية وغيرها أن يؤمنوا بالقرآن، ولكنهم كابرموا مع وضوح الحق وهذا القرآن الذي يفصل بينبني اسرائيل يهدي المؤمنين إلى طريق الحق والخير بما تضمن من شرائع وقوانين تنظم حياة الأفراد والجماعات، وهو رحمة؛ لأنه يرحم المؤمنين من الشك والحريرة ويوضئهم بالبر والتسامح.

إن ربكم وحده الذي يحكم بين أهل الكتاب فيما اختلفوا فيه، وما ادعوه باطلأ وزوراً بحكمه العادل، فيستقيم من المبيء، وبمحاري المحسن ما يستحق من الجزاء، لانه - سبحانه وتعالى - العزيز الذي لا يرد حكمه وقضاؤه ، وهو العليم بأفعال العباد وأقوالهم ، فلا يخفى عليه شيء ، منهم ، فقضاؤه موافق لواسع علمه .

(١) سورة النساء / ١٧٣

تشبيت للرسول - صل الله عليه وسلم

وبعد أن وصف الله ذاته بالعلم والقدرة أمر رسوله - صل الله عليه وسلم - بأن يفوض أمروره لربه، ولا يشغل نفسه بسلوك أعدائه، فإنه ناصرك عليهم، وذلك لأن دينك هو الحق، وإن حدوا به، وأنكروه، فقد حق فيهم قول ربك: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ^(١) ولو جاءتهم كلُّ هَايَةٍ حَقِّي بِرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ^(٢)، ويرى القرآن عن الرسول - صل الله عليه وسلم - وقد بلغ به الحمد الشاق في النصع والبيان هؤلاء الجاحدين المنكرين فيقول: إنك لا تقدر أن تفهم الحق من ماتت قلوبهم، فتركوا التدبر والاعتبار فهم كالموت لا يشعرون، ولا ان تسمع دعاءك ونداءك إلى الإيمان بالله هؤلاء الذين أصمهم الله عن سماعه فهم لا يستجيبون، وبخاصة أئمهم يفرون مدبرين اعراضاً عن الحق، وجاء التشبيه ملاييناً حاطم، فقد وصفهم القرآن بالضم ليسوا أنه لا أمل في استجابتهم للإيمان، ثم يأتي التأكيد في الآيات التالية للرسول - صل الله عليه وسلم - بأن هؤلاء لا خير فيهم، ولا رجاء في إيمانهم، فلأن آيات الرسول لا تستطيع أن تصرف هؤلاء عن كفرهم، وتهديهم إلى الطريق السوي، فقد جعل الله على بصرهم غشاوة، فلا يتأملون آيات الله التي تهديهم إلى الحق، وترشدهم إلى الإيمان، وهذه الآيات تكشف في جلالة موقف الذين لا يقدرون نعم الله عليهم، فيتفعون بها، ويعرفون فضل الله فيها، وهم لذلك يرفضون الحق والخير والهدى والرشاد. إنهم كالموتى والعمي والصم.

(١) من سورة يونس / ٩٧، ٩٨

وفي مقابل هؤلاء تأتي صورة الذين يحسنون الانتفاع بحياتهم وسمعيهم وأبصارهم، فيستجيبون للحق، ويختضعون لرجمهم في تسل وخشوع وإن **تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِعَايَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ** إنما يستجيب لدعوتكم، ويصدق رسالتكم أولو الأبصار الذين تأملوا آياتنا فصدقوها، وأمنوا بها، فجاءوا خائسين منقادين لرب العالمين.

وفي هذا المرفق دعوة للإنسان إلى الانتفاع بما وهبه الله من استعداد للإيمان، فيتدبر آيات الله في القرآن الكريم، ليهتم بها إلى الحق، وينصرف عن سواه، وفي ذلك توجيه إلى حسن الانتفاع بuttle السمع التي تنقل إلى عقل الإنسان ووجوداته ما يزيده إيماناً بخالقه سبحانه وتعالى.

تهذيد ووعيد للكافرين :

وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا يَعَادِتُنَا لَا يُوقِنُونَ (١٧)، وهذا تهذيد ووعيد يسوقه القرآن الكريم كائفاً فيه عن المقدمات ليوم القيمة فيقول: وإذا انتهى الأجل الذي تقبل فيه التوبة وحق عقابنا على الذين كفروا بآياتنا، ولم يصدقوا رسالتنا أخرجنا لهم دابة نكلمهم، والدواب لا تتكلم ولكنها الآية الحارقة المنتهية باقتراب الساعة فتقول لهم: إن الناس كانوا بآيات الله لا يؤمنون. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : **الثَّلَاثُ إِذَا خَرَجْنَ لَا يَنْفَعُ نَفَاعَاهُنَّا لَمْ تَكُنْ آمَنْتُ مِنْ قَبْلِهِ وَكَيْنَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرٌ أَطْلَوْعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَالدَّجَالُ وَدَابَّةُ الْأَرْضِ** (١٨).

(١٧) مسلم . كتاب الإيمان بباب : بيان الزينة التي لا يبدل فيه (١٧).

ثم يقول الله بعد ذلك عن بعض مشاهد القيمة: وادرك يا محمد
يوم نجمع للحساب من كل أمة من الأمم جماعة وزمرة من الجاحدين
المكذبين بآياتنا ورسلنا وهم يساقون أو لهم عمل آخرهم حيث لا إرادة لهم
ولا اختيار حتى إذا حضروا إلى موقف السؤال والجواب ومناقشة الحساب
قال الله تعالى موسخا لهم على التكذيب: أكذبتم بآياتي المتزلة على رسلي
من غير فكر ولا نظر يؤدي إلى العلم بها والإحاطة بحقيقةتها؟ أم أي شيء
كنتم تفعلون في الدنيا غير التكذيب؟ وهو استفهام يغيد التقرير.

وحق عليهم العذاب بسبب ظلمهم في الدنيا وتكذبهم بآيات
الله، فهم واجرون حامتون؛ لأنهم لا يهدون حجة يدافعون بها عن
أنفسهم.

الم بصر هؤلاء الجاحدون الليل وأنا حملته مظلماً ترثاح أجسامهم
فيه فينامون، وتهدا نفوسهم فيسنرّحون من تعب الحياة، وجعلنا النهار
منيراً مشرقاً. ليختروا فيه عن مطالب حياتهم ورزقهم؟ إن في هذا النظام
المحكم الذي يلائم طبيعة الحياة والأشياء لآيات ساطعة بوحدانية الله
وقدره وفي ذلك دعوة إلى التأمل في الكون والتفكير في آيات الله، لكي
يهتدى الإنسان إلى الإيمان فلو لم يكن هناك ليل، وكان الدهر كله نهاراً
لأنعدمت الحياة، وكذلك لو كان الدهر كله ليلاً سل أنه لو كان الليل أو
النهار أطول مما عليه الآن عشر مرات لحرقت الشمس الشتاء،
ولتجدد في الليل كل نبات، ففي هذا الخلق الإلهي للليل وللنهر ما يكفل
للحياة البقاء، ولكن الكافرين لا يؤمنون.

تهذيد للكافرين لشاهد يوم القيمة :

ولذا لم يدركوا نعم الله عليهم في الدنيا فاذكر لهم يوم الفزع يوم ينفع «إسرافيل» في الصور نفحة الفزع الذي يشمل كل من في السماوات والأرض إلا من شاء الله أن يثبت قلبه بالإيمان ويؤمنه من الخوف بما قدم في حياته من العمل الصالح ثم تتلوها نفحة الصعق ونفحة القيام من القبور وحيثند بحضور هؤلاء الفراعون الموقف بين يدي رب العزة للسؤال والجواب والمناقشة والحساب أدلة صاغرين مطبيعين.

ومن مشاهد هذا الفزع أن تضطرب الجبال فتبرق وتمر كأنها السحاب في خفته وسرعته، وكأنها ملائكة مع المدعورين هائمة مع المنطلقيين بلا وجهة ولا قرار.

سبحانه وتعالى الذي أتقن كل شيء، حسنده بحكمة، فلا مصادفة، ولا تقاؤت ولا نسيان إنه سبحانه وتعالى علهم بما يفعل العباد من خير أو شر، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء.

السعادة والأشقياء :

وبعد التذكير بنعم الله على الإنسان، وأنه سبحانه خلق له الليل والنهار، وعمل الإنسان أن يقابل ذلك بالشكر والطاعة، وبعد أن ذكره يوم الحساب وأنه لا ينفع فيه إلا الإيمان والعمل الصالح، أردف ذلك قوله بما يحفر الإنسان على الأعمال الصالحة وبما يتلامم مع طبيعة الإنسان وتربيته بالثواب والعقاب، قال سبحانه: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا» أي من آمنوا بالله وعملوا صالحاً فإن الله يضاعف الحسنة بعشر، ويعطيهم بالعمل القليل الثواب العظيم، فلا يفرّعون من هذا اليوم، هم آمنون بما

قدموها من عمل صالح . أما الذين أشركوا ، وعملوا السيئات ، فإنهم يكسرون في النار عمل وجههم ، ويلقون فيها مغلوبين ، ثم يقال لهم ترسيخا : هل تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا من سبع الأعمال ؟

المنج الذي أمر الله به رسوله - صلى الله عليه وسلم :-

يا محمد أخبر الناس جميعاً وقل لهم : إنما أمرت أن أعبد رب مكة الذي حرم على خلقه أن يفكروا فيها دمأ حراماً أو يظلموا فيها ، أو يقطعوا فيها شجراً ، وقد خصها الله بالذكر : لأن أول بيت للعبادة كان فيها . وفي هذا إنكار عليهم وتأنيب لهم على ما يفعلون من أنواع الفجور وفضيح المكرات فإنهم قد تركوا عبادة رب مكة ، ونصبوا الآوثان وعبدوها ، وإنني أعبد الله الخالق والمالك لكل شيء ، فهو رب كل شيء وملبيكه .

وأمرني ربي أن آسلم وجهي له ، وأن أكون من المؤمنين المخلصين المخلصين لأمر الله المحبين له في الطاعة .

وأمرني ربي أن أتلوا القرآن آناء الليل وأطراف النهار ، لتكشف لي أسراره المخزونة ، وحقائقه الرائعة ، فأعورف حقائق الحياة ، ويفيض الله على من فيو Paxane ما شاء أن يفيض .

وقد روى أنه - صلى الله عليه وسلم - «قام ليلة يصلي قرآن قوله تعالى : «إن تعذّبهم فإنهم عبادك»^(١) فما زال يكررها ، ويظهر له من أسرارها ما يظهر ، ويتحلى له من مقاصدتها ما تسميه نفسه إلى الملا الأعلم حتى طلع الفجر»^(٢) .

(١) الثالثة / ٤٤٦

(٢) نظر المأثور ج ٢ أخرج الحديث النبوي في كتاب الافتتاح باب : تردید الآية .

تكريم الله للإنسان:

وبعد أمر الله ورسوله - صل الله عليه وسلم - بتلاوة القرآن، لانه كتاب الإسلام الحاصل وفيه ما يأخذ على الفوس أقطارها، وعلى المشاعر طرقها، وفيه ما ينزل القلوب القاسية - أتبع ذلك بقوله: «فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المضللين»، وفي هذه الآية تحدد مسئولية الإنسان عن نفسه فمن اهتدى بالقرآن، واستدار قلبه بالإيمان فإن ثمرة هدايته واستجابتته للحق راجحة إليه، ومن ضلَّ واحد عن قصد السبيل فكذب بما جئت به - يا محمد - من عند الله فقل: إنما أنا من المضللين، وليس علي من وبال خسالكم شيء». وفي هذا تكريمه للإنسان، فقد عرض الله له المنهج وعليه أن يختار إما الإيمان والعمل الصالح فينال الجنة، وإما غير ذلك فعليه وحده إثم ضلاله «وَإِنْ قَوْلُوا
قَلَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ»^(١) ثم أمر الله رسوله - صل الله عليه وسلم - بتغريب قومه وترهيبهم فقال: «وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ» على ما حصني به من شرف النبوة والرسالة، ووفقي لتحمل أعبائها وتبليلها حکامها، واتباع ما أنتم عنه غافلون. إنه - سبحانه وتعالى - سيكشف لكم في كل يوم من الآيات الدالة على عظيم قدرته في الكون وفي الإنسان، فتعرفو أنها حرب لا تجدي المعرفة، ولا تفيد. كذا قال تعالى: «سَنُرِيهِمْ مَا يَتَنَاجَى فِي الْأَفَاقِ وَقِنَافِيْمْ
حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ أَحَقُّ»^(٢) ثم ختمت الآيات بقوله تعالى: «وَمَا رَبَّكَ
يُغَيِّلُ عَنِ الْعَصُولَتِ» وما ربك يغافل عما يفعل هؤلاء المشركون، فهو - سبحانه وتعالى - على كل شيء شهيد. وفي ذلك تهديد ووعيد للمكافرين، وتنبيه للغافلين بالعودة إلى الله رب العالمين.

(١) آل عمران / ٣٠ (٢) فصلات / ٥٣

(١) آل عمران / ٣٠ (٢) فصلات / ٥٣

سورة «القصص»
مكية ما عدا الآيات من الآية ٥٢
حتى الآية ٥٥ فإنها نزلت بالمدينة ،
وما عدا الآية ٨٥ فقد نزلت بالجحفة
في أثناء الهجرة
وآيات السورة ثمان وثلاثون .

التمهيد :

فهم هذه السورة بحاجب العقيدة من التوحيد والرسالة والبعث، وهي تكمل بالتفصيل والبيان ما أجمل في سوري النمل والشعراء، ولذا فهي تتحقق معها في الهدف وفي حتو النزول.

يدور محور هذه السورة الكريمة حول الصراع بين الحق والباطل، وبين جند الرحمن وجند الشيطان وقد ساق تصوير ذلك قصتين:

أولاًهما: قصة الطغيان بالحكم والسلطان ويعتلها في ذلك فرعون الطاغية الذي أذاق بني إسرائيل سوء العذاب، فتبين أبناءهم واستحيي نساءهم، وتعالي على حالقه، فتجراً وادعى الربوبية، فقال : « مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي »^(١).

والثانية: قصة الاستعلاء» والطغيان بالثروة والمال، ويعتلها «قارون» مع قومه

وكانا القصتين رمز إلى الطغيان في هذه الحياة سواء بالمال، أو الجاه، أو السلطان، ومن خلال القصتين يكتب المؤمن بما تريده إيماناً بربه، فيقبل على طاعته اعترافاً بفضله، وطمئناً في مغفرته ورضوانه.

ابتدايات السورة بالحديث عن طغيان «فرعون» وفساده في الأرض وبالتصوير لأساليب الطغيان ومنتفعه في كل زمان ومكان، ثم انتقلت إلى الحديث عن ولادة «موسى» - عليه السلام -، وخوف أمه عليه من بطش «فرعون»، وإهانة الله لها باليقائه في البحر، ليعيش معززاً مكرماً في حجر أمه كريحانة زكية.

(١) الفصل / ٣٨

ثم تحدثت عن بلوغ «موسى» - عليه السلام - من الرشد، وعن قتله القبطي وعن هجرته إلى مدين وتروجه فيها، وتكليف الله له العودة إلى «مصر» لدعوه فرعون إلى الله، ثم بيان واضح لما كان من أمر موسى مع فرعون إلى أن أغرقه الله وجنده.

وانتقلت الآيات تصور موقف كفار مكة مع الإسلام ورسوله، فيبيت أن سلك الكافر بن واحد.

ثم انتقلت إلى الحديث عن «فارون»، وبيت البوئ الكبير بين منطق الإيمان ومنطق الطغيان.

ثم كان خاتم السورة بالتوجيه إلى الإيمان والالتزام بالقرآن، والإذابة إلى الله مع الخشوع والخضوع، والركوع والسجود والتعظيم له رب العالمين.



الآيات من الآية (١) إلى الآية (٦)
من سورة «القصص»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسْ ① تِلْكَ هَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ① تَلَوْا
عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ②
إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَىٰ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شَيْئًا يَسْتُضْعِفُ
طَائِفَةً مِّنْهُمْ يَذْرِعُ أَبْنَاهُمْ وَرَسْخِيَءَ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ
مِنَ الْمُفْسِدِينَ ③ وَزَرِيدَ أَنْ عَنِ الْمُدِينَ أَسْتُضْعِفُوا
فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْهُمْ أَهْمَاءً وَجَعَلَهُمْ الْوَرَثَيْنَ ④
وَغَيْرَكُنْ هُمْ فِي الْأَرْضِ وَرَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَنْ وَجَنَدَهُمَا
مِّنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ⑤

معاني الكلمات والجمل:

طسم : هذه الحروف وغيرها للتتبّع على إعجاز القرآن الكريم ، والإشارة إلى أن هذا الكتاب المعجز مركب من أمثال هذه الحروف المجازية .

الكتاب المبين : القرآن الواضح في تشريعه وأحكامه .
 تتلو عليك : يتلو عليك جبريل يا مارنا .
 بالحق : بالصدق الذي لا رب ولا كذب فيه .
 علا : استكرا وتحير .
 شيئاً : فرقاً وأصنافاً في الخدمة .
 يستضعف طائفة : يستعبد ويستغل فريقاً منهم وهم بنو إسرائيل .

٣٦

يستحيي نساءهم : يترك الإناث على قيد الحياة لخدمته ،
 أن نحن : نتفضل بإحساننا .
 و يجعلهم أئمة : و يجعلهم أئمة يقتدي بهم في الدنيا والدين .
 و يجعلهم الوارثين : و يجعل هؤلاء الضعفاء وارثين ملك فرعون
 و قومه .

و تُنكِّن لهم في : يقال مُكْنَن له : إذا جعل له مكاناً موظعاً مجهزاً بجلس
 الأرض عليه ، والمراد به : التسلط على أرض مصر
 والتصرف فيها .

هامان : وزير فرعون .
 منهم : من بنى إسرائيل .
 ما كانوا يخدرون : ما كانوا يتوقعونه من ذهاب ملوكهم على يد مولد
 من بنى إسرائيل .

* * *

الشرح

الغلبة في نهاية الصراع بخند الرحمن :

بدأ الله - سبحانه وتعالى - هذه السورة بقوله : « طس » وهذه الحروف الثلاثة للتذكرة على أن القرآن الكريم قد صاغه الله من هذه الحروف ومن غيرها من الحروف المجائية ، ليكون معجزة باسلوبه وتشرعيه وما فيه من فصوص نسوقة لك - يا محمد . في هذه السورة ، ليكون تسلية لك وللمؤمنين بما حذر لرسلي . عليه السلام - وبني إسرائيل من فرعون ، ولتعلم هؤلاء المؤمنون أن النصر لهم في النهاية على كفار مكة وغيرهم من الظالمين .

« إِنَّكَ هُوَ أَيْتُ الْكِتَابَ لِلْعَبِيرِينَ » هذه آيات القرآن الكريم الذي أنزله الله - سبحانه وتعالى - كاشفاً لأمور الدين وأخبار الأولين ، فهو وحيٌ من عند الله لم تتفوّله كلاماً ذعم المشركون . ثم ذكر ما يثبت أنه وحي ، وليس من وضع البشر فقال :

« تَسْلُوا عَلَيْكُم مِّنْ نَبِيًّا مُّوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ، نَقْرَا عَلَيْكُمْ يَا مُحَمَّدَ - بوساطة الروح الأمين من الأخبار عن موسى وفرعون نتلوها عليك كأنك شاهد حواستانها ، مبصرٌ وقائعها لفوم يصدقون بك وبيكتابك ، لهم الذين ينتظرون ويعتبرون بآياته دون غيرهم ، ولتعلمنا قلوبهم ، ويعلموا أنه الحق من ربهم ، وأن سنته فيما خالفةك وعاداك من المشركين هي سنته فيما عادى موسى ومن آمن معه من بني إسرائيل وأن النصر دائم للمؤمنين .

فرعون الطاغية :

ويجيء تفصيل هذه الأخبار مؤكدًا أن فرعون كان طاغيًا تجاه مصر، وفهر أهلها، ولكن يتحقق سباسته الظالمة فرق بين أبناء مصر وأغري بينهم العداوة، كيلا ينفعوا على أمر، ولا يجمعوا على رأي، وهذا ما يفعله الاستعصار في العصر الحديث بين المسلمين «فرق تسد».

إن فرعون قرب المصريين، وأعطاهم المكانة الرفيعة وأدلى ببني إسرائيل، وفهرهم، فكان يذبح أبناءهم الذكور حين الولادة؛ لأنه كان يخشى هؤلاء الذكور الذين يتقنون الصناعات ويسايدلهم المال فإذا طال الأمر سيطروا باقتصادهم على المصريين والغزو الاقتصادي أشد فتكا بالشعوب من الغزو العسكري، كما يشهد بذلك هذا العصر. ولما كانت النساء لا يُجذّنن ما يتقنه الذكور، وليس بساحتين المال أبقاهن عمل قيد

الحياة. (١)

روي أن فرعون رأى في منامه أن ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى اشتعلت على بيوت مصر، فاحرقـت القبطـ، وتركـت بـني إـسرـائيلـ، فـسـأـلـ قـوـمـهـ فـأـخـبـرـهـ الكـهـنةـ بـاـنـهـ سـيـخـرـجـ مـنـ هـذـاـ الـبـلـدـ رـجـلـ يـكـوـنـ زـوـالـ سـلـطـانـهـ عـلـىـ يـدـيهـ، فـأـخـدـ يـكـلـفـ الذـكـورـ الـأـعـمـالـ الشـاقـةـ الـتـيـ تـضـعـفـ قـوـةـهـ، وـيـكـلـفـ الـقـوـابـلـ لـيـخـبـرـهـ عـوـالـيـدـ بـنـيـ إـسـرـايـلـ، فـيـادـرـ سـدـحـ الذـكـورـ رـلـكـنـ اللهـ يـرـيدـ خـيـرـ ماـ يـرـيدـ الطـغـاةـ الـفـاسـدـونـ.

الله ينجي المؤمنين :

فـهـؤـلـاءـ الـمـسـتـضـعـفـونـ تـفـضـلـ اللهـ عـلـيـهـمـ فـنـجـاهـمـ مـنـ ذـلـ فـرـعـونـ،

(١) تفسير المراغي ج ٢٠

وأر لهم في أنفسهم وفي أعدائهم ما يذمون ، فقد جعلهم الله يقتدى بهم وقاده وحكاماً يرثون ملك « فرعون » فتأسست لهم دولة عظيمة في بلاد الشام ، وصاروا يتصرّرون في مصر كما شاءوا .

وهذا الموقف الذي ساقه القرآن الكريم فيه تسلية للرسول - صل عليهم وسلم - وأصحابه وبشري لهم بتمكينهم من مكة وغيرها من أرض الله، وفيه تحذير للطغاة من الحكام وغيرهم ، وتشبيت للمؤمنين بالصبر على البلاء والآلام إلى عدل الله وستنه في خلقه .

الله غالب على أمره :

وهكذا تحمل الآية الأخيرة من هذا النص القرآني أنه لا يغطي حدر من قدره فالله يُرى هؤلاء الأقوباء على يد بني إسرائيل من المذلة والخوان وما كانوا يتوقعونه من زوال ملتهم وسلطانهم على يد مولود منهم تربى في فراش فرعون ، وتغدو من طعامه ، ولكن كان حتى ذلك حينوده على يديه ، ليعلم أن الله غالب على أمره ، وإن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ يمكن .

الآيات من الآية ٧ إلى الآية ١٣
من سورة «القصص»

وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ مُوسَىٰ أَنْ
أَرْضِعِيهِ فَمَاذَا حَفِظَتِ عَلَيْهِ فَأَقْبَرَهُ فِي الْجَمَّ وَلَا تَحْافِي وَلَا
تَخْرِقِي إِنَّا رَأَدْوَهُ إِلَيْكَ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ⑦
فَأَلْتَقَطَهُ إِلَّا فِرْعَوْنٌ لِيَكُونَ هُمْ عُدُوًا وَزَنَّا إِنَّ فِرْعَوْنَ
وَهَامَنَ وَجْهُهُمَا كَانُوا خَنْطِعِينَ ⑧ وَقَاتَ امْرَأٌ
فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا
أَوْ يَخْلُدَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ⑨ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمْ
مُوسَىٰ فَرِغًا إِنْ كَادَتْ لَتَبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَى
قَلْبِهِ لِنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ⑩ وَقَاتَ لِأَخْتِهِ
قُصِّيَ فَبَصَرَتْ بِهِ عَنْ جَنْبِ وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ⑪
وَحْرَمَنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلِ فَقَاتَ هَلْ أَدْلُكُ

عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُرُّ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ⑯
 فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أَمْبِيَهِ كَيْ تَقْرَءَ عَيْنَاهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ
 وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ⑰

معاني الكلمات والجمل :

- رأوا حينا : وألمتنا.
- فالقيه في اليم : اليم: البحر، والمراد هنا: تبر النيل.
- ولا تخافي : الخوف غم يحدث بسبب توقع مكرره يحدث في المستقبل.
- ولا تحزني : الحزن غم يحدث بسبب مكرره قد حصل.
- فالتعطه آل فرعون : فداخله اهل فرعون احد اللقطة التي يُعنى بها، وتصان من الضياع.
- كانوا خاطفين : كانوا عصاة مشركون.
- قرة عين لي ولدك : هو فرحة ومسرة لي ولدك.
- أو تشخذه ولدنا : أو تُتباه، فتجعله لنا ولدنا.
- وأصبح فؤاد أم : طار عقلها من فرط الحزوع والغم حين سمعت موسى فارغاً بوقوعه في يد فرعون.
- إن كادت لتبدى به : إنها كادت أن تكشف أمره وتظهره أنه ابنها.

لولا أن ربطنَا عَلَى : لولا أن ثبتنَاها، وألمتناها الصبر.

قلبها

قصبه : افتغى أثراه، وتبعي خبره.

فبصَرْتُ بِهِ عَنْ : أبصرته عن بعد.

جنب

وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ : لا يدرُونَ أهْمَانَهُ.

وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ : وَمَنْعَنَا مُوسَىٰ أَنْ يَقْبَلْ ثَدِي أَيِّ مَرْضَعَةٍ مِّنَ الْلَّاتِي
أَحْضَرْنَا لِإِرْضَاعِهِ . المراضع

مِنْ قَبْلِ مَعْجِيْهِ . منه.

يَكْفُلُونَهُ . يضمرون رضاعه والقيام بشئونه.

وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ : وَهُمْ مُخْلِصُونَ لَهُ ، يَعْمَلُونَ مَا يَنْفَعُهُ فِي غَذَائِهِ
وَتَرْبِيَتِهِ .

الشرح

حياة الله موسى - عليه الصلاة والسلام -

ذكر الله - سبحانه وتعالى - في الآيات السابقة انه تَبَيَّنَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ اسْتَضْعَفُوا وَعُذِّبُوا عَلَى يَدِ «فَرْعَوْنَ» وَجَنْوَدَهُ، وَأَنَّهُ - سبحانه - سَيَزِّلُ عَقَابَهُ بِفَرْعَوْنَ وَمَنْ أَمْنَ مَعَهُ، ثُمَّ ذَكَرَ تَفْصِيلَ تَعْمِلَةِ عَلَيْهِمْ فَقَالَ : «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْنَا أَمْ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعَهُ» .

لقد ولد موسى - عليه السلام - والخطر عدق به ، والموت يتضرره
على يد فرعون فلهم الله أمه أن ترضعه (فَإِذَا خَفِتِ عَلَيْهِ) وهو في

حضرتك ، وهو في رعايتك (فَالْقِيَهُ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنْ) إذا حضرت عليه من جواسيس فرعون ، أو من الجنرال أن يخبروا عنه إذا سمعوا صوته ، فالقيه في النيل إنه في رعاية اليد التي لا أمن إلا في جوارها ، اليد التي لاتقرب المخاوف من حماها فلا تخافي هلاكه ، ولا تحزني لغراقه .

وقد نفذت أمر ربه ، فصنعت صندوقا ، ووضعت ابنها فيه ، وألقت به في نيل مصر ، تم وعدها - سحانه - بما يسلّمها ، ويطمئن قلبها ، وعلّمه عصبة وسرورا وهو رده إليها ، وجعله رسولاً نيا .

«إِنَّا رَأَدْوْهُ إِلَيْكَ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمَرْسِلِينَ» إن استرد ولذلك إليك للرضاخ ، وستكونين مرتضيّة ، وتكون خاتمة بني إسرائيل على يديه .

فالنقطة آل «فرعون» فأخذته أهل «فرعون» كاللقطة التي تصان من الضياع حبيحة الليل الذي أقي فيه النابوت .

روي أن الموج أقبل به يرفعه مرة ، ويختفي آخرى حتى أدخله بين الأشجار عند بيت «فرعون» فخرجت جواري امرأته إلى الشط ، فوجدن النابوت فادخلته إليها ، وظنّ أن فيه مالا ، فلما فتحته وجدن فيه غلاما ، فورقت عينا «آسية» امرأة فرعون عليه فاحتسته ، ولكن «فرعون» أراد أن يتبعه إذ قال : إن أخاف أن يكون هذا من بني إسرائيل ، وإن يكون هلاكتنا على يديه فلم تزل تكلمه حتى رأّ لها ، وترى .^(١) وبعلن السحر أن العاقبة كانت غير ما أملت امرأة «فرعون» ليكون لهم عدواً وحزناً ، ليكون عاقبة أمره عدواً يتحداهم ، فيخالفهم في دينهم ويعملهم على الحزن ، ويجلب لهم الحزن عندما يزول ملتهم على يديه^(٢) ، ثم يتنـ .

^(١) نفس المرامي حد .

^(٢) نفس المرامي حد .

سبحانه - إن ما ارتكبه فرعون وبهaman وجنودها مع بي إسرائيل كان سلوكاً طائناً و عملاً ظالماً فقال : « إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا نَحْنُطِينَ » إن هؤلاء دأبوا على الخطأ وعدم التدبر في العواقب ، وهذا قتلوا لأجل هذا الفتى الوفا ، ثم أخذوه يربونه ليكرر ، ويفعل بهم ما كانوا يحدرون .

ولكن كيف يكون هذا الضعف قوة تحطم سلطان فرعون؟ لقد حثه قدرة الله بالحب في قلب « آسية » امرأة « فرعون » حين قالت تدافع عنه وتخييه إلى « فرعون » : إنه مما نقر به العيون ، ونفرح لرؤيته القلوب ، فلا تقتلوه .

« وَقَاتَتْ أَمْرَاتُ فِرْعَوْنَ قَرْتُ عَيْنَ لَيْ وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ » وذكرت العلة لذلك « عسى أن ينفعنا أو تخذلهم ولدها » لعلنا نصيب منه خيراً لنجابته ، أو ثباته لما فيه من الوسامة وجمال المنظر ، وكانت لا تلد ، فاستوحيته من فرعون ، تشبع به أمومتها ، وعملاً عليها حياتها فرحاً وسروراً فوهره لها .

وقد فعلوا ذلك ، وهم لا يدركون ما يجتبه لهم القدر من عظامهن الامور التي تؤدي إلى هلاكهم .

وذلك شأن موسى - عليه السلام - مع من لقيه ، فيما قال أمّه الواحة وقللها الملهوف؟ إنها حين علمت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها « وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً » ، ولو لا أن ثبتناها ، وأهمناها الصبر ، لاذاعت أمرها في الناس ، وهتفت : أنا أضعت ولدي ، وقد فعلنا ذلك ، لتكون من المصدقين بوعد الله الصابرين على ابتلائه ، السائرين على هداه . ولم تسك أم « موسى » عن البحث والمحاولة فقالت لابنتها « مريم » : تتبعي أثره ، واعرف في خبره ، فاستجابت أخته لنداء أمها ، وذهبت تقص أثره في حلبر

وخفية، وتتلمس خبره، فابصرته عن يَعْدِ وهم لا يشعرون أنها تقضي،
وأنها أخْتَهُ (وَمَنْ عَلَيْهِ الْعَرَاضَ مِنْ قَبْلِ فَقَاتَ هَلْ أَذْلَكُ عَنْ أَهْلِ بَيْتٍ
يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ تَصْحُونَ) ومنع الله موسى أن يُقبل على نَبِيِّ أَبِي
مرضعة من المرضعات فشغلهم أمره، فقالت أخته حين رأت اهتمامهم -
وكانت قد دَلَقَتْ إلى القصر خفية، ووقفت بين الوصيفات -: أخْبُونَ أَنْ
أَرْشِدُكُمْ إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَتَولَّونَ تَرْبِيتَهُ، وَيَقُولُونَ بِجَمِيعِ شَتْوَنَهُ،
وَلَا يَقْصُرُونَ فِي خَدْمَتِهِ وَالْعَنَيْةِ بِأَمْرِهِ؟

روي عن ابن عباس^(۱) أنها لما قالت ذلك أخذوها، وشكوا في
أمرها، وقالوا لها: ما يدريك بصلاحهم له وشفقتهم عليه؟ فقالت: هم
يفعلون ذلك رغبة في سرور الملك ورجاه عطائه، وبذا خلصت من
آذاهم، وذهبوا معها إلى منزلها، ودخلوا به على أمها، فأعطته نديها
فالتفقه، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، وذهب البشير إلى امرأة الملك
فاستدعت أم موسى، وأحسنت إليها، وأعطيتها العطاء الجزيل، ثم
سالتها أن تقييم عندها، وترضعه فابت ذلك عليها، وقالت: إن لي بعلاً
واولاداً ولا أستطيع المقام عندك، ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي
فعلت، فاجابتها إلى ما طلبت وأجرت عليها التغفة وجزيل العطاء،
ورجعت بولدها إلى بيتها راضية مرضية (فَرَدَدْنَاهُ إِلَيْ أُمِّهِ كَيْ تَقْرَبْ عَيْنَهَا
وَلَا تَخْرَجَنَّ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) الذي وعدها حين قال: «إِنَّا رَأَيْدُهُ إِلَيْكَ
وَجَاعَلُهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ» هو وعد حق «وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» حكم
الله في أفعاله وعواقبه المحمودة في الدنيا والآخرة، فقد يكون الأمر يغشا
إلى التفوس، محمود العاقبة آخرًا كما حدث في أمر موسى - عليه السلام .

(۱) تفسير المراغي، ج ۲، ص ۳۷.

الآيات من الآية ١٤ إلى الآية ١٩
من سورة القصص

ولما بلغ

أشدَّهُ، وَأَسْتَوَىٰ إِذْ أَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَّلِكَ تَجِزِي
الْمُخْرِبِينَ ⑯ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ جِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا
فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَلَانِ هَذَا مِنْ شَيْعَتِهِ وَهَذَا مِنْ
عَدُوِّهِ، فَأَسْتَفْشَهُ اللَّهُمَّ مِنْ شَيْعَتِهِ عَلَىٰ اللَّهِ مِنْ
عَدُوِّهِ فَوَكِرْهُ مُوسَىٰ فَتَعْقَنَ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَنْ
الشَّيْطَنِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ⑰ قَالَ رَبِّيْ إِنِّي نَظَرْتُ
نَفْسِي فَأَغْفِرْلِي فَغَفَرَ لَهُ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الْرَّحِيمُ ⑱
قَالَ رَبِّيْ إِنِّي أَنْعَمْتُ عَلَىٰ فَلَنْ أَكُونَ خَلِيلًا لِلْمُجْرِمِينَ ⑲
فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَلِيلًا يَرْقُبُ فَهَذَا الَّذِي أَسْتَنْصَرْتُهُ
بِالْأَمْسِ بِسْتَرِّخِمَ، قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغُوَّيْ مُّبِينٌ ⑳
فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَبْرِطَشَ بِاللَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَنْعُومْي

أَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَنِي أَلَّا مِنْ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا
أَنْ تَكُونَ جَبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنْ
الْمُضْلِلِينَ ⑯

معاني الكلمات والجمل:

بلغ أشده واسعه : كمل نمو جسمه وعقله والمراد: سن الأربعين.

أعطيناه حكماً وعلماً : أعطيناه الفهم والعلم والتفقه في الدين مع النبوة.

المدينة : مصر.

على حين غفلة : في وقت لا يتوقعون فيه.

من شيعته : من شابعه، وتابعه في الدين وهم بنو إسرائيل.

من عدوه : من خالفيه في الدين وهم القبط.

استغاثة : طلب غوثه ونصره.

الذى من شيعته : هو الإسرائىل.

على الذى من : هو القبطي.

عدوه

فوكزه موسى فقضى : ضربه موسى بحصى كفه فقتله، وأنهى حياته.

عليه

من عمل الشيطان : من تربى في الشيطان .
 مبين : ظاهر العداوة والإضلال .
 فاغفر لي : فاعف عني ، ولا تؤاخذني بخطئي .
 بما أنعمت على : من المغفرة والمدحية .
 فلن أكون ظهيرا : فلن أكون عوناً لأحد من المجرمين .
 للمجرمين
 خاتماً يترقب : خاتماً على نفسه ، يتوقع ويستقر المكروه .
 استنصره : طلب نصره ومعونته .
 يستنصر به : يطلب الاستغاثة بصوت عالٍ .
 إنك لغويٌ مبين : إنك لبيس الغواية والإضلال .
 أن يطش بالذى : أن يدفع القبطي عن الإسراع ب بصورة وسطوة .
 هو عدوٌ لها
 إلا أن تكون جباراً : إلا أن تكون ظالماً ، والجبار هو الذي يفعل ما يفعل دون نظر في العواقب .
 من المصلحين : من يبغون الإصلاح بين الناس .

الشرح

الله ينفع فضيله للطائعين :

هذه هي المرحلة الثانية من حياة نبي الله موسى - عليه السلام -
 وفيها تكشف الآيات القرآنية عن فضل الله على عباده المخلصين فقد كبر
 موسى وصار أهلاً لتحمل أعباء الرسالة حيث قوى جسمه ، ووضجع
 عقله ، حيث نبذ وهمه الله - عز وجل - فقهها في الدين وعلمها بالشريعة وقد نال

هذه المترفة بسب طاعته لربه وصبره على أمره، وهذا عدل الله - سبحانه وتعالى - الذي يجازي المحسنين على إحسانهم، كما جازى أم موسى - عليه السلام - لما خضبعت، فرداً الله أينها إليها، وهي آمنة، ثم وهب العقل والحكمة والثبوة.

ولما خالف موسى - عليه السلام - «فرعون» وقومه في دينهم، وانكر عليهم ما كانوا عليه، فأخذوه فدخل «مصر» مستخفياً في وقت لا يتوقع أحد دخوله فيها.

الشيطان عدو يجب الخدر منه:

دخل موسى - عليه السلام - مصر في وقت الظهيرة والناس نائم، فوجد فيها رجلين يتشاجران أحدهما من بني إسرائيل والأخر من قوم فرعون وهو طباخ قصره، وكان قد طلب إلى الإسرائيلي أن يحمل حطباً للمطبخ قاب، فاستجذب الإسرائيلي، فضرب موسى القبطي في صدره، فقتلته فحزن، وندم، ثم قال: إن ما حدث هو من إغراء الشيطان، إنه عدو يتبعي الخدر منه، فهو لا يقود إلى خير.

موسى - عليه السلام - يطلب المغفرة من الله:

أسف موسى - عليه السلام - وندم على ما فعل فقال: رب إن خللت ذنبي، فقتلت نفساً لا يحمل قتلها فاغفر لي ذنبي، واستره، ولا تؤاخذني بما فعلت، فاستجاب الله، فعفا عن ذنبه؛ لأنـه - سبحانه وتعالى - هو الستار لمن أذب فأناب إليه، وهو - سبحانه - المتفضل بالعفو عن المذنبين، الرحيم عن أخلص الله توبيه، ورجع عن معصيته. وفي هذا

المرفق دعوة للمذنبين إلى التندم على معصيهم وطلب المغفرة من الله
الغفور الرحيم.

ثم يقدم لنا القرآن الكريم درساً في الإحسان بفضل الله والشكر
عليه فيقول على لسان نبي الله موسى - عليه السلام - : يا رب قد انعمت
علي بعفوك عن قتل هذه النفس ، وإن لم تمنع عن عناصرة من تؤدي
عناصرته إلى الإثم والجحود . وتحو هذه الآية قوله تعالى : «**وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا**»^(١) .

وتصف الآيات حال موسى - عليه السلام - فقد سار في المدينة
خائفاً على نفسه من جحاده التي ارتكبها بقتل النفس التي قتلها وصار
يحس بالأخبار ، وحاف أن يأخذ بما فعل ، فيفتله وبينما هو يسير والحزن
والخوف يحيطان به وإذا الإسرائيلي الذي طلب نصرته بالأمس على
مصري ؛ يطلب إليه الغوث والعون على مصرى آخر ، فقال له موسى :
إنك رجل بين العواية والضلال ، فقد ارتكبت بالأمس جريمة قتل
بيك ، وتريد أن تدفعني اليوم إلى أخرى ، ودنا منها ، فلما أراد أن يأخذ
الفرعون بالشدة قال له لائحاً ومنكراً : أتريد أن تقتلني كما قتلت غيري
بالأمس ؟ وأكد إنكاره لما فعل موسى - عليه السلام - فقال له : إنك ت يريد
أن تكون خالماً في الأرض تضرب وتفتله ، ولا تريد أن تفعل بما فيه
الإصلاح بين الناس .

* * *

وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى
 قَالَ يَنْعُوشَ إِنَّ الْعَلَيْا بِإِغْرِيْرُونَ يَكَدْ لِيَقْتُلُوكَ فَانْخُرُجْ
 إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ②٣٦ فَخَرَجَ مِنْهَا خَافِقاً يَتَرَبَّقُ
 قَالَ رَبِّ لَعْنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّلَمِينَ ②٣٧ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاهُ
 مَذِيْنَ قَالَ عَسَى رَبِّيْ أَنْ يَهْدِيْنِي سَرَّاً هُوَ السَّبِيلُ ②٣٨
 وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْرِنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ
 وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ أُمَّرَاتِيْنِ تَذَوَّدَانِ قَالَ مَا خَطَبُكُمَا
 قَاتَنَا لَا نَسْقِي حَنَّ يُصْدِرَ الرِّعَايَا وَأَبُونَا شَيْخٌ كَيْرٌ ②٣٩
 فَقَنَ طَعَامُمْ تَوَلَّ إِلَى الْفَلَلِ فَقَالَ رَبِّيْ إِنِّي لِمَا أَزَلْتَ
 إِلَيْيَ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ②٤٠ فَجَاءَهُهُ أَحَدُهُمَا تَمَشِّي عَلَى
 أَنْتِيجِيَا وَقَالَتْ إِنِّي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيْكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ

لَئَلَّا فَلَمْ يَأْتِهُ وَقْتٌ عَلَيْهِ الْقَصْصَ قَالَ لَا تَحْفَظْ
 بِحَكْمَتِي مِنَ الْقَرْمِ الظَّالِمِينَ ⑥ قَالَتْ إِنِّي أَخْدُهُمَا يَكْتَبُ
 أَنْتَ شَفِيرُهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَغْرَقَتْ الْقَوْىُ الْأَمِينُ ⑦
 قَالَ إِنِّي أَرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِنِّي أَتَتَقَ هَذِينَ عَلَى أَنْ
 تَأْبِرَنِي كُنْتِيْ جَعِجَعَ فَإِنَّ أَنْهَمْتَ عَشْرًا فَنَزَعَ عَنِّيْ وَمَا
 أَرِيدُ أَنْ أَشْقَ عَلَيْكَ سَتَجْدِنِيْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ
 الصَّالِحِينَ ⑧ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِيْ وَبَيْنِكَ أَبْيَانًا الْأَجْلَيْنِ
 قَضَيْتُ فَلَا عُذْوَنَ عَلَىَّ وَاللَّهُ عَلَىَّ مَا تَقُولُ وَسِكِيلٌ ⑨

معاني الكلمات والجمل:

وجهاء رجل من : هو رجل مؤمن من آل فرعون جاء من أبعد أقصى المدينة أطراف المدينة.

يسعنى بسرع.

الملا : أشراف الدولة ووجوهاها.

يأترون بك : يتشاركون في أمرك.

يتربّ : يلتفت يمينه ويساره.

ترجمة تلقاه مدين : خرج متوجهًا نحو «مدبن» .
 ورد ماء مدبن : وصل إلى البر الذي يستقي منها أهل مدبن .
 أمّة : جماعة من الناس .
 تذودان : تطردان خنقاً عن الماء بحروفاً من السقاة الأقوباء .
 ما خطبكما : ما شأنكما تمنعان الغنم عن ورود الماء؟
 يُصدر الرعاع : يصرف الرعاعة مواشיהם عن الماء .
 تولى إلى الفَلْ : الصرف إلى ظل شجرة .
 إني لما أنزلت السَّيِّ : إنحتاج إلى فضلك وإحسانك .
 من خير هغير
 تخسي على استحياء : تخسي في حياء شديد .
 ليحرزك : ليثبلك .
 الفصص : الحديث المخبر به .
 أنكحك : أزوحك .
 على أن تأحرني : على أن تكون أجيراً لي ثقلي سنين .
 ثقلي حجج
 وما أريد أن أشق : وما أريد أن أكلفك مشقة .
 عليك ذلك بيقي وبيتك : ذلك اتفاق بيتك لا نخرج عنه .
 أمّا الأجلين فضبت : أي الأجلين : أطوطها أو أقصرها أديتها لك .
 فلا عدوان علىي : فلا إثم ولا حرج علىي .
 وكيل : شهيد .

الشرح

نجاة موسى من فرعون وجنوده:

انتشر في المدينة حديث موسى - عليه السلام - مع القبطي ، فاتمر فرعون ومستشاروه ، واجمعوا أمرهم على قتله ، وكان من آل فرعون رجل مؤمن يكتم إيمانه ، فاسرع إلى موسى بخبره الخبر ويتصحّه بالهرب .

استجاذ موسى - عليه السلام - لنصيحة أخيه المؤمن ، فخرج من مدينة فرعون خائفاً يترقب لحوق العذالين ، ويتلفت يميناً ويساراً ويشطر أيّبعه أحد؟ ثمَّ خَلَى إِلَى اللَّهِ الَّذِي لَا مُلْجَا إِلَّا إِلَيْهِ قَاتِلًا: «رَبِّنَا تَحْنَى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» رب نجني من هؤلاء الذين ذابوا على الظلم ، وقتلوا من لم يرتكب إثماً ، فاستجاذ الله دعاءه ، ووفقه إلى طريق النجاة ، فخرج إلى «مدبن» التي تقع شمال خليج العقبة ، بين الحجاز والشام .

المؤمن تحرسه عنابة الله :

ولما أتجه موسى إلى «مدبن» سأله الله أن يرشده إلى الطريق القوي ، وقد قال ذلك توكلًا على الله وثقة بحسن توفيقه قال المفسرون: خرج خائفاً بغير زاد ولا ظهر ، وكان بين مصر ومدبن مسيرة ثانية أيام ، ولم يكن له علم بالطريق سوى حسن ظنه بربه ، فبعث الله إليه ملكاً فأرشده إلى الطريق .

وحينما وصل «مدبن» بعد سفر مضمن وطريق شاق ألق الله له أسباب الأمان والطمأنينة ، فقد وجد عين ماء يستنقى منها أهل «مدبن» ووجد جماعة من الناس يسفون مواشيهم ، ووجد امرأتين تكافآن غنميهما عن الماء ، فلما رأهما «موسى» - عليه السلام - رق لها ، ورحهما ، فاقبل

عليها قائلًا: ما خبركما، لم لا ترداي الماء مع هؤلا، القوم؟ فاجابتاه إن من عادتنا الثاني حتى ينصرف الرعاعة مع أغذامهم عن الماء ولا طاقة لنا على مزاحمة الأقوباء، ولا نريد مخالطة الرجال، وأبسونا رجل مُسِنٌ لا يستطيع لضعفه أن يباشر سقاية الغنم. قال أبو حيأن: فيه اعتذار لموسى عن مباشرتها السعي بانفسها، وتبينه على أن أباها لا يقدر على التغى لشيخوخته وكبره، واستعطاف لموسى في إعانتها^(١).

جزاء العمل الصالح :

ساق «موسى» - عليه السلام - غنم الفتاتين، وسقاها، وهذا شاهد على ثقل هذه النفس التي صنعها الله على عينه، كما يدل على قوة موسى التي تُرْهِب حتى وهو في إحياء السقر، ولعلها قوة نفس المؤمنة التي أوقعت في قلوب الرعاعة الرهبة، فإنما يتأثر الناس أكثر بقوة الأرواح من قوة الأجسام، ثم انصرف إلى ظل شجرة ليستريح، وناجي ربه قائلًا: إن لحتاج إلى شيء تنزله على من فيشك. من خزان جودك وكرمك. قال ابن عباس: وكان قد بلغ به الجوع، وانخر لونه من أكل البقل في بطنه، وإنه لا يكرم الخلق على الله^(٢).

فَجَاءَهُ إِحْدَىٰ نِسَاءَ تَمَثِّلِي عَلَىٰ أَنْتِ حِيَا وَقَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا، فجاءته إحدى الفتاتين تمثلي وهي حبيبة قد سرت وجهها بشورها قائلة: إن أبي يدعوك، ليكافئك على ما صنعت من الإحسان، وأسدت من المعروف ببقى غصنا، فمع الحياة الإبادة والدفعة والوضوح فالفتاة القوية تستحي بفطرتها عند لقاء الرجال والحديث

(١) تفسير القرطبي - ٢٧٠ من ١٣٠

(٢) البحر - ٤١٣/٧

معهم، ولكنها لفتها بظهارها واستفامتها لا تضطرب، وإنما تحدث في
وضوح بالقدر المطلوب.

قبل موسى - عليه السلام - الدعوة، وذهب معها إلى أبيها الشيخ
الكبير: فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصْصَ قَالَ لَا تَخْفَ تَحْوِتَ مِنَ
الْقَرْمَ الظَّالِمِينَ.

لقد كان «موسى» - عليه السلام - في حاجة إلى الأمان كما كان في
حاجة إلى الطعام والشراب، ولكن حاجة نفسه إلى الأمان كانت أشد من
حاجة جسمه إلى الزاد، وهذا فقد ألقى الشيخ في قلبه الخطمانية والأمن
بقوله: «لا تحف» وعلل لذلك، وأبان فقال: «تحوت من القرم
الظالِمِينَ»، فلا سلطان لهم علينا، ولنا في دائرة ملكهم، وهذا فعندما
قرب إليه طعاما ف قال «موسى» - عليه السلام - : لا أأكل إنا أهل بيت
لا نبيع ديتنا بملء الأرض ذهب، فقال ثعيب: ليس هذا عرض السقي،
ولكن عادي وعادة أبيثي قوى الضيف، وإطعام الطعام؛ فحيث أكل
موسى^(١).

ثروة المؤمن خلقه :

يَوْمًا طمأنه، وأئمه على نفسه دار الحديث «قَالَتْ إِحْدَى هُمَّا يَنْأَبُ
أَنْتَ بِرْجِهِ إِنَّ خَيْرَ مِنْ أَسْتَعْجِرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ» قال أحدى الفتاتين
لأبيها: استأجزز موسى ليرعى لك ما شئت، وإن أحسن من تستأجر
الرجل القوي الأمين، أما قوته فقد ظهرت عندما هابه الرعاه، فأفسحوا
له الطريق، وسقى لها وهو غريب، وأما أمانته فقد روي أنها قالت

(١) نسر الفرضي جزء ١٣، ص ٢٧١

لابيها: إني لما حلت معه تقدمت أمامة، فقال لي: كوفي من ورائي وخلفي على الطريق، ولما أتيته حفص بن بصرة، فلم ينظر إلى وجهه الشهادة أعطت ابنه الشيخ مثلاً لفتاة المؤمنة التي تشهد للمرجل بقوته وأمانته، ولا تخشى سوء الفرز فهي بريئة النفس نظيفة الحس.

كما قدم الشيخ مثلاً للحكمة، فاستجابت لاقتراح ابنته، ولعله أحسن من الفتاة وموسى نفقة متساوية، ومبلاً فطرياً سليماً صالحًا لبناء أسرة فالقوة والأمانة حين تجتمعان في رجل - لا شك - تهفو إليه طبيعة الفتاة السليمة التي لم تفسد ولم تحرف عن فطرة الله، فجمع الرجل بين الغايتين وهو يعرض على موسى أن يزوجه إحدى ابنته في مقابل أن يخدمه ويربعها ما شئت ثانية مائتين فلان زادها إلى عشر فهو تفضل منه لا يلزم به راجياً بعثية الله أن يجده «موسى» من الصالحين في معاملاته.

**«قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِعَكَ إِحْدَى أَبْنَتِي هُنْتَنِ عَلَيْكَ أَنْ تَأْجُرَنِي
أَبْنَتِي جِيجَ فَلَمَّا أَتَمْتَ عَشْرَ اِقْنَانَكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشْقَى عَلَيْكَ
سَتَجْدِدَنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْمُصْلِحِينَ».**

وهكذا يعرض القرآن الكريم هذا الموقف للرجل بعرض إحدى ابنته لبناء أسرة، وليس في هذا ما ينخلع، ولا ما يدعو إلى التحرج.

ولقد كان الآباء يعرضون بناتهم على الرجال في عهد الرسول - حصل الله عليه وسلم - كان يتم ذلك في صراحة وآدب جميل، لا تخذش معه كرامة ولا حياء.. عرض عمر رضي الله عنه - ابنته حفصة على «أبي بكر» فسكت، فعرضها على «عثمان» فاعتذر فلي آخر النبي - حصل الله عليه وسلم - بهذا طيب خاطره قائلاً: عسى أن يجعل الله لها نصيحة فيمن هو خير منها، ثم تزوجها - حصل الله عليه وسلم .

وَقَبْلَ «مُوسَى» - عَلَيْهِ السَّلَامُ - الْعَرْضُ مِنَ الشَّيْخِ - قَبْلَ أَنْ يَتَرَوَّجْ
أَحَدُ الْفَقَائِدِينَ، وَقَبْلَ الْمَهْرِ الَّذِي فَرَضَهُ الشَّيْخُ، وَبِرَمْ الْعَقْدِ ، ثُمَّ يُفَرِّغُ
هَذَا الْأَمْرَ «مُوسَى» وَيُوَضِّحُهُ فَيَقُولُ : «قَالَ ذَلِكَ بَنِي وَبَيْنَكَ أَيُّهَا
الْأَجْلَيْنَ قَضَيْتُ فَلَا عُدُونَ عَلَى وَاللهُ عَلَى مَا تَنْقُولُ وَكِيلٌ» سَوَاءً قَضَيْتُ
ثَانِيَ سَنَوَاتٍ أَوْ أَنْتَ عَشْرًا فَلَا عُدُونَ وَلَا مُثْقَةٌ فِي تَكَالِيفِ الْعَمَلِ ،
وَلَا عُدُونَ فِي تَحْتِمِ العَشْرِ فَالزِّيَادَةُ عَلَى الثَّمَانِيِّ اخْتِيَارٌ .

رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سُئِلَ : أَيُّ الْأَجْلَيْنَ قَضَى
مُوسَى؟ فَقَالَ : «أَوْفَاهُمَا وَابْرُهَامَا»^(۱) .

تَمَّ جَعْلُ اللَّهِ شَهِيدًا عَلَى صَدْقَ ما يَقُولُ كُلُّ مِنْهَا فَقَالَ : «وَاللهُ عَلَى
مَا تَنْقُولُ وَكِيلٌ» وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا أَوْجَبَ كُلُّ مِنْهَا عَلَى نَفْسِهِ لِصَاحِبِهِ .

* * *

(۱) رواه الخطيب في تاريخه، تفسير المؤمن ج ۲ ص ۱۵۳

الآيات من الآية ٢٩ إلى الآية ٣٥
من سورة «القصص»

* فَلَمَّا قُضِيَ مُوسَى الْأَجَلُ وَسَارَ يَأْهِلِهِ إِلَيْهِ أَنَّسٌ مِنْ
جَانِبِ الظُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ أَنْكِرَا إِنِّي هَاتِتُ نَارًا
لَعْلَيْهِ أَنْ يَكُونُ مِنْهَا يَخْبِرُ أَوْ جَذْوَرَةً مِنَ النَّارِ لَعْلَكُمْ
تَضْطَلُونَ ⑯ فَلَمَّا أَتَاهَا نُورُهُ مِنْ شَنْطِي الْوَادِ الْأَبْعَدِ
فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَرَّكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَنْعُوشَنِي إِنِّي أَنَا اللَّهُ
رَبُ الْعَالَمِينَ ⑰ وَأَنْ أَقِنَ عَصَالَهُ فَلَمَّا رَأَهَا تَهْتَزُ كَانَتْ
جَانَ وَلَيْ مُذِيرًا وَلَرْ بِعْقَبَ يَنْعُوشَنِي أَقِلْ وَلَا تَحْفَنْ
إِنِّي مِنَ الْأَمِينِ ⑱ أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَبِيلَكَ تَخْرُجْ
يَضَاءَهُ مِنْ تَبَرِّ سُورَ وَأَضْحَمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الْرَّهِبِ
فَذَلِكَ يَرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَيْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِيَّهُ إِنَّهُمْ كَانُوا
قَوْمًا فَلَسِيقِينَ ⑲ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَنْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا

فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ^{٢٧} وَأَبْغِي هَرُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي
 لِإِنَّا فَارِسَةٌ مَعِيَ رِدَمًا يُصْدِقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ
 يُكَذِّبُونِ^{٢٨} قَالَ سَنَشِدُ عَضْدَكَ رَأْخِيلَ وَنَجْعَلُ لَكَ
 سُلْطَانًا فَلَا يَصْلُونَ إِلَيْكَ رَعَابَتِنَا أَنْتَمَا وَمِنْ أَتَبَعْنَا

الْقَاتِلُونَ ^(٢٩)

معاني الكلمات والجمل:

فليقضى موسى : فلها أتم موسى مدة العمل ، وكان قد اختار أطول
 الأجلين .
 وسار بأهله : وسار بزوجته عائدا إلى مصر .
 آنس من جانب : أبصر من بعيد ناراً تتوهج من جانب جبل الطور .
 الطور ناراً
 قال لأهله امكثوا : قال لزوجته: امكثي هنا فقد أبصرت ناراً عن
 إني آمنت ناراً بعد .
 لعل آتكم منها : لعل آتكم بخبر الطريق ، واردي من يدلني عليه .
 بخبر
 أو جلدة من النار : أو آتكم بشعلة من النار لعلكم تستدفنون بها .
 لعلكم تصطرون

نَهَرُ كَاتِبًا جَانِي : كأنها حية تدب بسرعة، وتشعرك في حففة، وتسلوكي
كصغر الحيات، وهي حية كبرى.

وَلَيْ مَدِيرًا وَلَمْ : فَرْ هاربا، ولم يلتفت إليها.
يَعْقُبُ

أَسْلَكَ يَدَكَ فِي : أدخل يدك في حب قميصك، والحب: الفتحة
حيث
فِي الثوب مَكَانَ دَخْولِ الرَّأْسِ.

مِنْ غَيْرِ سُوءٍ : من غير أذى ولا برص.

أَحْمَمَ الْيَدَكَ : أضمم يدك إلى صدرك من الخوف يذهب عنك
جناحك من الرعب والمراد بالجناح: اليد، لأن يدي الإنسان
الرَّهْبَ
بنزالة جناحي الطبر.

فَذَانَكَ بِرْهَانَنَ مِنْ : أي فهذا - العصا واليد - حجتان واضحتان من
رَبِّكَ إِلَى فَرْعَوْنَ
وَقَوْمِهِ.
فذهانك برهانان من الله تدلان على صدفك وهو آيتان إلى فرعون

إِنَّمَا كَانُوا قَوْمًا : خارجين عن طاعتني، مخالفين لأمرنا.

فَاسْقِينَ

هُوَ أَفْصَحُ مَثْ : هو أوضح بيانا، وأطلق لسانا.
لِسَانًا

فَأَرْسَلَهُ مَعِي رَدَدًا : فارسله معي معيانا يبين لهم ما أكلهم به بتوضيح
الحجج والبراهين.

شَأْ عَضْدَكَ : ستفويك بأحيتك، وتعينك به ونجعل لكما غلة
بأحيتك ونجعل
وَتَسْلَطُوا عَلَى فَرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ.
لِكُلِّ سَلْطَانٍ

فلا يصلون إلَيْكُمَا : فلا سُبْلٌ لَهُمْ إِلَى الْوَحْشَوْلِ إِلَى أَذَاكُمَا بِسَبِّ مَا
بَأْيَاتِنَا أَبْدَتُكُمَا بِهِ مِنَ الْمَعْجزَاتِ الْبَاهِرَاتِ .

أَنْتَا وَمِنْ أَتَيْكُمَا : أَنْتَ وَأَخْرُوكَ هَارُونَ وَمِنْ يَوْمِنِ يَوْمِنِ بَكَمَا غَالِبُونَ
الْغَالِبُونَ لَفَرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ بِحَجَّتَا وَمَعْجَزَاتِنَا الَّتِي نَجَّرَهَا عَلَيْكَ .

الشرح

موسى - عليه السلام - يعود إلى أهله :

فَلَمَّا وَفَقَ مُوسَى الْأَجْلُ الَّذِي اتَّفَقَ عَلَيْهِ مَعَ خَيْرِهِ بِدَالِهِ أَنْ يَصْطَحِبَ زَوْجَهُ وَوَلْدَيْهِ إِلَى مِصْرَ ، لِيَزُورَ أَبَاهُ وَأَمَّهُ وَأَخَاهُ مُرِيمَ وَأَخَاهُ هَارُونَ ، فَادْنَهَ لَهُ الشَّيْخُ ، وَسَاقَ مَعَهُ أَغْنَامًا ، وَهَبَهَا لَهُ صَهْرُهُ وَسَلَكَ الطَّرِيقَ فِي لَيْلَةِ مُطْبَرَةٍ وَظَلْمَةٍ بَارِدَةٍ ، وَأَوْضَكَ أَنْ يَضْلُلَ الطَّرِيقَ ، فَحَفِظَ رَحْمَالَهُ ، وَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ رَأَى تَارًا تَضَبِّنُ عَنْ بَعْدِ فَقَالَ لِأَهْلِهِ : انتَظِرُوا قَلِيلًا ، إِنِّي أَبْصَرْتُ تَارًا لَعْلَى أَتَيْكُمْ مَتَّهَا بِخَبْرِ الطَّرِيقِ ، أَوْ أَتَيْكُمْ بِقَطْعَةً مِنَ الْحَطَبِ فِيهَا ، لَتَتَدَفَّقُوا بِهَا مِنَ الْبَرْدِ وَكَانَ الْوَقْتُ شَتَاءً .

الله ينادي عبده «موسى» - عليه السلام - :

فَلَمَّا وَصَلَ مُوسَى - عليه السلام - إِلَى التَّارِ الَّتِي أَبْصَرَهَا مِنْ جَانِبِ الْعُطُورِ لَمْ يَجِدْ تَارًا ، وَوَجَدْ نُورًا لَا يَعْرِفُ مَصْدِرَهُ ، وَنَادَاهُ رَبُّهُ مِنْ جَانِبِ الْوَادِيِ الْأَيْمَنِ : أَيُّ عَنْ مَيْنَ مُوسَى فِي الْبَقْعَةِ الْمَبَارَكَةِ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّجَرَةِ ؟
يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّكَ وَرَبُّ الْعَالَمِينَ جَمِيعًا ، وَهَذَا هُدَى نَفْسِهِ ، وَاحْسِنْ أَنْ نُورًا إِلَيْهَا يَغْمُرُهُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، فَأَمِنْ بَعْدَ خَوْفٍ ، وَاسْتَقِرْ بَعْدَ قُلْقٍ ، وَاهْتَدِي بَعْدَ حِيرَةٍ .

الله يؤيد «موسى» بالمعجزة، ويتوّجهُ بالرسالة:
امن الله عبده «موسى» - عليه السلام - وأيده بمعجزتين من يديه ،
لتكونا آتين على نبوته ، فألقى عصاه ، فصارت حيةٌ تسعى ، فلما رأها
تتحرك وتضطرب كأنها جان لسرعة عدوها ، وخففة حركتها ، ولل هارباً
منها ، ولم يرجع .

ثم يستمع إلى ربِّه الأخِل بما جهدَ في روعه ، ويزيل خوفه : يا موسى
أقبل إلَيَّ ، ولا تخف ، وكيف لا يَأْمَن من تَقْدِيل بِدْ القدرة خطاياه ، ومن
ترعاه عين الله .

ثم أراه ربُّه آيةً أخرى ، ليزداد طمأنينة ، فقال سبحانه : **أَتَلَكَ**
يَدَكَ فِي جَبَرِكَ تَخْرُجُ بِضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوْرَه ، ادخل يدك في جيب قميصك
تخرج منها شعاع يضيئ من غير عيب ولا برص .

ولما اغترى موسى الخوف من العصا نارة ، ومن الدهشة من شعاع
يده مرة أخرى أمره ربُّه أن يضع يده على صدره ، ليزول ما به من
الخوف ، **وَأَضْحِمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبَه** وَأَنْجِمْ يده جناح يقيضه على
صدره ، كما يطمئن الطائر ، فيعطيه جناحه .

هذا دليلان واضحان على قدرة ربِّك ، ومحاجتان واضحتان من
الله تعالى على صدقك ، وأينان أرسلناهما إلى فرعون وقومه ؛ لأنهم كانوا
قوماً خارجين عن طاعة الله ، مخالفين لأمره ، متذمرين لكل دين جاء به
الرسول .

موسى - عليه السلام - يطلب من الله مُوازنة أخيه هارون :

قال «موسى» - عليه السلام - يا رب إني قتلت من قوم فرعون نفسي من غير قصد، فأشف إن أتبئهم ، ولم أبئ عن نفسي بحجة إن يقتلوني وأخي هارون هو أفضح مني لساناً ، وأحسن بياناً ، فأرسله معي عوناً يلخص بلسانه الفضائح وجوه الدلالات ، ويخيب عن الشبهات ويجادل هؤلاء الجاحدين .

الله يحبب (موسى) - عليه السلام - طلبه :

أحاب الله عليه موسى - عليه السلام - فقال : سقوبك ، ونعيتك بأخيك ، و يجعل لكما سلطاناً عظيمًا و غلبة على عدوكم ، فلا يصلون إليكما بوسيلة من وسائل الغلب ، فتحولهما من سلطان الله سياج ، ولهم منه حصن و ملاذ ، فأتمنا ومن تبعهما الغالبون بآياتنا وسلطاناً الذي نجعله لكما ، وفي ذلك من الحجة ما يؤكد أن فرعون لم يتمكن من السحرة ، لأنهم كانوا في حياة الله فقد كانوا من أكبر الاتباع الذين يذلوا أنفسهم في سبل الله « كَتَبَ اللَّهُ لَا يُغْلِبُ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » (١١) .



قَلَّا جَاءَهُمْ مُوسَى يَأْتِنَا بِيَوْمٍ
 قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرٌ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي أَبَابِلِنَا
 الْأَوَّلِينَ ⑥٢٧ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ عَنْ جَاءَهُ بِالْهُدَى
 مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَذْقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
 الظَّالِمُونَ ⑥٢٨ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَابِهَا الْمُلَائِكَةُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ
 مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدُ لِي يَهْنَمَنْ عَلَى الْطِينِ فَاجْعَلْ لِي
 صَرْحًا عَلَى أَطْلِعْ إِلَيْهِ مُوسَى وَلَئِنْ لَأَظْنَهُمْ مِنْ
 الْكَافِرِينَ ⑥٢٩ وَأَنْتَكِيرْ هُوَ وَجْنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
 الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجِعُونَ ⑥٣٠ فَأَخْذَنَهُ
 وَجْنُودُهُ فَنَبَذَنَهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَذْقِبَةُ
 الظَّالِمِينَ ⑥٣١ وَجَعَلْنَاهُمْ أَهْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْبَارِ وَيَوْمَ
 الْقِيَمَةِ لَا يُنْصَرُونَ ⑥٣٢ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الْأُذْنَى لَعْنَهُ

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِنَ الْمَغْبُرِينَ ⑮ وَلَقَدْ نَاتَّا
مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكَنَا الْفَرْوَانُ الْأَوَّلُ
بِصَاحِبِ الْكِتَابِ وَهُدَى وَرَحْمَةً لِعِلْمِهِ يَذَكَّرُونَ ⑯

معان الكلمات والجمل:

فلما جاءهم موسى : جاءهم موسى بالبراهين الساطعة، والمعجزات
بابياتنا ببيانات القاطعة.

ما هذا إلا سحر : ما هذا الذي جتنا من العصا واليد إلا سحر
مفتشي مكذوب مختلف.

رقى أعلم : إلهي الذي أدعوه إلى توحيدك هو الذي يعلم.
عاقبة الدار : النهاية المحمودة في الدنيا التي عاقبتها في الآخرة
الجنة.

إنه لا يفلح : إنه لا يسعد من كان فاجراً كاذباً على الله.
الظالمون

يا أيها الملا : يا أيها الأشراف والصادقة.

فاوقد لي ياهمان : فاصنع بما همان اللئين، ثم أوقد له ناراً شديدة
على الطين تحرقه، وتنتضجه ليكون أجراً «وهامان الوزير
الأول لفرعون».

صرحاً : فصرحاً شامخاً.

لعل أطلع إلى الله : لعل أصعد إلى المكان الذي يقيم فيه الله موسى .
 مرسى
 فلذناهم في اليم : طرحنهم في البحر .
 آنفة : قادة ورؤساء ياتم بهم أتباعهم .
 يدعون إلى النار : أي إلى ما يوجبهما من الكفر والمعاصي .
 وأبعاذهما في هذه : والزمان فرعون وقومه في هذه الدنيا خزياناً وغضاياً
 الذبي لعنة
 فهلكوا كافرين مطرودين من رحمة الله .
 هم من المقيودين : هم من الدين كتب الله عليهم الفت وشرب
 الخلقة والطرد من رحمة والبعد عن نعيمه .
 الكتاب : التوراة .
 الفرون الأولى : هم قوم نوح وهو وصالح .
 بصائر : واحدها بصيرة ، وهي نور القلب الذي يميز بين
 الحق والباطل .
 لعلهم يتذكرون : رجاء أن يتغفلا .

الشرح

موسى في مصر يدعو فرعون إلى الإيمان :

عاد موسى - عليه السلام - إلى مصر؛ ليدعو فرعون وقومه إلى
 الإيمان بالله ومعه الحجج والبراهين الدالة على صدق رسالته، فكان
 جواب فرعون وقومه أن قالوا: ما هذا إلا سحر لفترته من عندك وانتحللة
 كذباً وبهتاناً، وما تدعونا إليه من عبادة الله واحد لم يعرفه أسلافنا وأباءنا
 الذين مضوا قبلنا، وهذا القول هو ما قاله المشركون في مكة للرسول -

عليه الصلاة والسلام - «مَا هَذَا إِلَّا سُرُورٌ مُفْتَرٌ وَمَا مَنَعَنَا يَهْنَدًا فِي قَهْبَاتِ
الْأَوَّلِينَ».

أدب «موسى» - عليه السلام - أمام المنكريين :

قال «موسى» - عليه السلام - رداً على فرعون وقومه ربى أعلم
بالحق منا - يا فرعون - من المطل ومن من الذي جاء باهدي الذي
يوصل إلى سبيل الرشاد، ومن من الذي له العقى الحمودة في الآخرة،
والكافرون الذين يكذبون رسول الله لا يظفرون بالفوز والنجاة في الدنيا
والآخرة .

تهم فرعون :

لما ألم موسى فرعون الحجة، وأحسن باهزيمة قال لقومه : لا أعرف
أن لكم إلهآ غيري ، وأراد أن يخفى عجزه وخزيه وتخاذله أمام «موسى»
- عليه السلام - ، فخاطب وزيره «هامان» متهمكاً أمام «موسى»، ليشكك في
دعوته قائلاً : اصنع لي آجراً . واجعل منه قصراً شامخاً وبناءً عالياً لا يصعد
إلى الله موسى الذي يبعده في الساء ، وإن لاظنه كاذباً فيها يذهب .

واستكثر فرعون وجندوه ، ورأوا كل من سواهم في أرض مصر
حقيراً ، واستمروا الطغيان والظلم وحسبوا أنهم بعد عانهم لا يعيشون ،
ولا يثابون ولا يعاقبون ، ولم يعلموا أن الله لهم بالمرصاد .

«فَاخْذُهُ وَجْنُودَهُ فَتَبَذَّلُهُمْ فِي الْبَحْرِ» إتها قدرة الله التي تحمل ، ولا
تحمل ، لقد كانت نتيجة الطغيان والجبروت أن ألقى الله بهم في البحر
فيأتوا جميعاً غرقى .

فَمَا أَمْرَ اللَّهُ رَسُولُهُ مُحَمَّدًا - حَلَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالنَّظَرِ وَالتَّأْمِلِ فِي
الآيَاتِ، كَيْفَ كَانَ مَصْبِرُ الظَّنِّينَ كَفَرُوا رِبِّهِمْ، وَرَدُوا النَّصِيبَةَ عَلَى رَسُولِهِ
مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَمْ تَهْلِكُهُمْ؟ وَنُورُتْ دِيَارُهُمْ أَوْلَيَاءُنَا الْمُؤْمِنُونَ . وَفِي
ذَلِكَ تَسْلِيَةُ الْمَرْسُولِ - حَلَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَتَهْدِيَهُ لِكُفَّارِ مَكَّةَ .

«وَجَعَلْنَاهُمْ إِيمَانَهُمْ يَدْعُونَ إِلَى الظُّلْمِ»^١ وَجَعَلْنَا فَرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ فِي الدُّنْيَا
فَادَةً وَزَعْمَاءً فِي الْكُفَّرِ يَقْتَدِيُهُمْ أَهْلُ الضَّلَالِ، فَقَدْ خَلُوا، وَأَخْلَوْا،
وَاسْتَحْقَوْا ذَلِكَ جَزَاءَيْنِ، فَلَيْسَ هُمْ نَصِيرٌ، وَلَا شَفِيعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَدْفَعُ
عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا حَاقَ بِهِمْ، كَمَا كَانُوا يَتَأْصِرُونَ فِي الدُّنْيَا «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ
لَا يَنْصُرُونَ» .

هزِيْتان للبَاطِلِ :

أَلْزَمَ اللَّهُ فَرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا خَرِيْباً وَغَضِيْراً ، فَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ
بِالْخَلَاقِ وَالْبَيْوَارِ وَسُوءِ السِّيرَةِ، وَسَتَبَعَهُمْ لَعْنَةُ أُخْرَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الذُّلِّ
وَالْهُوَانِ وَالْطَّرَدِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ جَزَاءَ تَطَاوِلِهِمْ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى عِبَادِهِ .

الْغَايَةُ مِنْ إِرْسَالِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ

يَرَكِّدُ اللَّهُ - بِسْمِهِ وَتَعَالَى - أَنَّهُ أَنْزَلَ التُّورَةَ، وَفَصَلَ فِيهَا الْأَحْكَامَ
الَّتِي تَسْعَدُ الْبَشَرَ فِي دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ، بَعْدَ مَا أَهْلَكَ أَهْلَكَ أَهْلَكَ أَهْلَكَ
مِثْلَ قَوْمِ نُوحَ، وَهُودَ، وَصَالِحَ، وَلَوْطَ، وَفِي التَّذَكِيرِ بِالْأَسْمَاءِ السَّابِقَةِ عَصْرَةُ
النَّاسِ، وَنُورُ لِقَلُوبِهِمْ بِهِ تَبَصُّرُ الْحَقَائِقِ، وَعِيزُ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ وَيَهْتَدُونَ إِلَيْهِ
إِلَى مَا يَقْرَبُهُمْ مِنْ رَحْمَانَ اللَّهِ وَمَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، لِيَتَذَكَّرُوا نَعَمْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
فَلَا يَشْكُرُوهُ .

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِ إِذْ قَضَيْنَا لِلَّهِ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا
 كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ④١) وَلَكِنَّا أَنَّا قُرُونًا فَنَطَّاولَ
 عَظِيمُ الْعَزْوَةِ وَمَا كُنْتَ تَاوِي بِأَفْرَقَ أَهْلَ مَدِنَ تَشْلُوا عَلَيْهِمْ
 هَا يَنْتَنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ④٢) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْطُّورِ
 إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لَتُنْذَرَ فَوْمَا مَا أَتَتْهُمْ مِنْ
 نُذْرٍ يُرِيدُونَ قَبْلَكَ لَعْلَمُهُمْ بِتَذْكُرِنَا ④٣) وَلَوْلَا أَنْ تُصَيِّبَهُمْ
 مُصِيبَةً يَمْبَغِيَ قَدْمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا وَيَا إِنَّا لَمَّا لَرَأَيْنَا
 إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّيْعَهُ أَيْتَكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ④٤)
 قَلَّمَا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَيْنَا مِثْلَ
 مَا أَوْفَيْنَا مُوْسِيًّا أَوْ لَمْ يَكُفُرُوا أَيْمَانًا أَوْفَيْنَا مُوسَى مِنْ قَبْلِ
 قَالُوا إِنَّمَا تَنْظَهِرُوا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كُفَّارٍ كُفَّارُونَ ④٥) قُلْ
 فَاتُوا بِرِبِّكُمْ بِمَنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمْ أَتَيْعُهُ إِنْ

كُنْتُمْ صَدِيقِنَ ⑯ فَإِنْ لَرْبَّنْتَجِيْوَالَّكَ فَاعْلَمْ أَنَّ
 يَتَّسِعُونَ أَهْوَاهُمْ وَمَنْ أَفْسَلَ رَمْنَ اتَّبَعَ هُونَهُ يَغْيِرُ
 هُدَى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ⑰

معاني الكلمات والجمل :

- الغربي** : هو الجيل الغربي الذي حدث فيه التكليم وأعطى الله فيه أواحة التوراة لموسى - عليه السلام .
- قضينا** : عهدنا إليه ، وكلفناه أمرنا وبهذا .
- الأمر** : أمر الرسالة .
- من الشاهدين** : من الحاضرين لمشاهدة ما حذر لموسى حينما كلمه الله تعالى .
- أثانياً قررنا** : خلقنا إماماً من بعد موسى .
- فتطاول عليهم** : تطاول عليهم الزمان .
- العمر**
- وما كنت ثارياً في** : وما كنت مقبراً مع قوم شعب في أرض مدين .
- أهل مدين**
- ولكنا كنا مرسلين** : ولكننا أرسلناك في أهل مكة وأخبرناك بذلك الأخبار .

ولكن رحمة من : ولكن أوحيناها إليك رحمة من ربك .
ربك

لتتذر قوماً ما أتاهم : لتخوف قوماً ما جاءهم رسول قبلك يا محمد بعد
من نذير من قبلك (عيسى عليه السلام) .

ولولا أن تصيّهم : ولو لا أن نقع عليهم كارثة .

مصلحة

بما قدّمت أيديهم : سبب كفرهم ومعاصيهم .

فليا جاءهم الحق : فلما جاء القرآن كفار مكة من عند الله على يد
من عندنا محمد - صل الله عليه وسلم .

لولا أتي مثل ما : هلا نزل عليه مثل الذي نزل على موسى ! وهلا
أتو موسى جرى على يده من العجزات مثل الذي جرى على
يد موسى !

قالوا سحران : قال المشركون: إن موسى وعمادا ساحران تعاونا
تطاهرا على الخداع والتضليل .

فإن لم يستجيبوا : فإن لم يجيئوك إلى ما طلبته منهم .
لتك

فاعلم إنما يتبعون : فاعلم أن كفرهم عناد، واتباع للأهواء لا بحجة
أهواههم وبرهان .

ومن أضل من أتبع : أي لا أجده أضل من اتبع هواه بغير رشاد ،
هواه بغير هدى من ولا بيان من الله .

الله

* * *

الشرح

الإخبار عن الماضي معجزة:

— يخاطب الله به « محمدًا ». حل الله عليه وسلم - ليقول : ما كنت يا محمد موجوداً بحاجب الجبل الغربي الذي حدث فيه التكليم ، واعطى الله فيه الواح التوراة لموسى - عليه السلام - حين عهدنا إليه أمر النبوة ، وما كنت من جملة السبعين الذين اختبروا لسماع تفاصيل ذلك الأمر الذي أوحينا به إلى موسى ، ولكننا أوحيناه إليك ، ليكون من أعظم البراهين على نبوتك ، وإن إخبارك إنما هو بوصي من الله .

— « ولَكُنَا أَنْسَاتَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ » ولكننا خلقنا أئمّا وأجيالاً من بعد موسى ، فتطاول عليهم الزمان ، وطالت الفترة ، فنسوا ذكر الله وبذلوا ، وحرّفوا الشرائع ، فارسلناك يا محمد لنجدد أمر الدين .

— وما كنت مقرباً بين أهل « مدين » تلتفق قصة موسى - عليه السلام - من شاهدتها ، وتقرّها عليهم بطريق التعلم منهم ، كما يقرأ المتعلّم عن معلمه فتفهم أخبار موسى - عليه السلام - بهذا الطريق ونحوه .

— « وَلَكُنَا كُنَّا مُرْسِلِينَ » ولكننا أرسلناك في أهل مكّة والخبرنات بتلك الأخبار ، ولو لا ذلك ما علمتها .

— « وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الظُّورِ إِذْ نَادَيْنَا » وما كنت بجانب الظور ليلة المراجحة ، وتكلّم الله موسى حتى تحدث أخبارها ، ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بتلك الأخبار ، وعما فيه البشر ، لتشرّق قوماً لم يأثّهم قبلك نذير ، لعلهم يرجعون عن غيّهم ، فسيروا إلى ربهم ، ويتوجّهوا بالعبادة إليه وحده .

الحكمة من إرسال الرسول - صلى الله عليه وسلم :

ولو أنا عذبت قريشاً، وأخذناهم على ما ارتكبوا من الكفر والمعاصي
قل أن نرسل إليهم - يا محمد - لقالوا: هلا أرسلت إلينا - يارينا - رسولًا
يدعونا إليك، ويرشدنا لعبادتك، فتكونون من المؤمنين بالوهبة المصدقين
برسولك؟! وهكذا أرسلناك إليهم حتى لا تكون لهم حجة يعتذرون بها
لمخالفتهم ماجحت به.

ثغرد وعناد:

بن الله فيها سبق أنه - سبحانه وتعالى - أرسى رسوله محمداً - صل
الله عليه وسلم -، لثلا يقول الكافرون عند نزول العقاب عليهم: هلا
أرسلت إلينا رسولًا! وفي هذه الآية يكشف القرآن موقفهم فيقول:
ولكتهم بعد أن أرسل الله محمداً - صل الله عليه وسلم - بالقرآن طلبوا
معجزات كمعجزات موسى - عليه السلام - من محيٍ، التوراة جلة،
وقلب العصا حية، وإخراج اليد بيضاء من غير سوء ولكتهم خشوا،
وخلوا، فقد كفروا بما أنزل على موسى نفسه، لما ورد في كتابه من أنك
سترسل إليهم، ثم أنكروك حينما أرسلت وتأولوا كتابهم، وغيروا فيه،
وعدوك ساحراً وعذوه ساحراً، وأنكما ساحران تعاوتباهما على السحر،
وأعلنوا كفرهم بكل من التوراة والقرآن.

القرآن يتحدى المنكريين:

**«قُلْ فَأَتُوا بِكَتَبٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْ هَمَا أَتَيْتُهُ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ»** إنه أمر على سبيل التشجيع والتحدي، أي قل لهم يا محمد،

النورى بكتاب من عند الله أصلح هداية البشر من التوراة والقرآن ، فإن
حتم به ، فلأنى أتبعد إن كنتم صادقين فيما تقولون .

الوعيد لمن يمشي على هواه :

فإن لم يتفلدوا ما كلفتهم به ، فاعلم أن كفرهم عناد واتباع
للاهواء ، لأنه لا حجة لهم ولا برهان فيما يدعون ، وليس هناك أحد أضل
من اتبع هواه بغير بيان من الله وعهد منه بما ينزله من وحي على رسle ،
وهي ذلك بيان لفيع أفعالهم .

عدل الله :

ثم نختم الآية بالعدل الإلهي قائلة : إن الله لا يوفق لاصابة الحق
واتباع سبيل الرشد من خالفوا أمره ، وتركوا طاعته ، وكذبوا رسle ،
وابطعوا هوى أنفسهم ، وصدق الله العظيم « وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا
أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » (١١) .

* * *

* * *

* وَلَقَدْ وَصَلَنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ⑤١
 الَّذِينَ هَادَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ⑤٢
 وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا أَمْنَا يَهُوَ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا
 إِنَّا كُلُّنَا مِنْ قَبْلِهِ مُتَلِّيْنَ ⑤٣ أَوْ لَئِنْ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ
 مِنْ تِينِ عَصَبَرُوا وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ الْسَّيِّئَةَ وَمَا
 رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ⑤٤ وَإِذَا سَمِعُوا آلِلْغَوَّ أَغْرِضُوا عَنْهُ
 وَقَالُوا إِنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمْ عَلَيْكُمْ لَا تَنْتَقِلْ
 إِلَيْنَا ⑤٥ إِنَّكُمْ لَا تَهِيْدِي مِنْ أَهْيَاتِ وَلَكِنَّ اللَّهَ
 يَهِيْدِي مِنْ يَهِيْأَهُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْعُهْدِينَ ⑤٦ وَقَالُوا إِنَّ
 نَّقْعَ الْمُهَدَّى مَعَكُمْ تُخْطَفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ يُعْلَمْ لَهُمْ
 حِرْمَانٌ إِنَّا يُجْهِيْنَا إِلَيْهِ تَعْرَكُتْ كُلُّ شَيْءٍ ⑤٧ وَرَزْقًا مِنْ أَرْضِنَا
 وَلَكِنَّ أَعْكَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ⑤٨ وَلَكُمْ أَهْلُكُمْ مِنْ قَرْيَةِ

بَطَرْتَ مَعِيشَتَنَا فَتِلَكَ مَكِنْتُمْ لَرْ نُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ
 إِلَّا قَلِيلًا وَكَانَ حَنْ أَلَّا يَخْرُجُ الْوَرَيْثَيْنَ ⑤٥٦ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ
 الْقَرَى حَنْ يَبْعَثُ فِي أَمْهَا رَسُولًا يَنْلُو عَلَيْهِمْ إِذَا يَتَنَاهُ
 وَمَا كَانَ مُهْلِكِي الْقَرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَلِيلُونَ ⑤٥٧ وَمَا أُوتِيتُمْ
 مِنْ شَيْءٍ وَقَاتَلُوكُمُ الْحَيْزَرُ الْدُنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ
 وَابْنَنَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ⑤٥٨ أَفَنْ وَعَدْنَهُ وَعْدَنَ حَنَّا
 قَهُولَتِيهِ كَمْ مَتَعْنَاهُ مَتَعَ الْحَيْزَرُ الْدُنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمُ
 الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ⑤٥٩

معاني الكلمات والجمل:

ولقد وصلنا لهم : أنزلنا عليهم القرآن متبعاً على ما نقتضي
 القول الحكمة .
 لعلهم يتذكرون : لعلهم يتعظون ، فيؤمنوا .
 الذين آتيناهم : أعطيناهم التوراة والإنجيل .
 الكتاب من قبله .
 من قبله القرآن .

هم به يؤمنون : هم بهذا القرآن يصدقون .
وإذا يتل عليهم : فإذا قرئ عليهم القرآن قالوا صدقنا به .
قالوا آمنا به
مسلمين : منقادين خاضعين لله ، مستسلمين لأمره .
أولئك يؤتون : أولئك ينحوون ثواب عملهم مرتين : مرة على
أجرهم مرتين بما إيمانهم بكتابهم ، ومرة على إيمانهم بالقرآن بسب
صبروا شاتمهم على الإيمانين .
ويندرون بالخسنة : يدفعون الكلام القبيح بالكلام الطيب
البيضة
ويعطا رزقناهم : وينفقون في الخير مما أعطاهم الله من فضله .
يتفقون
اللغو : القول الباطل الذي لا ينفع في دين ولا دنيا .
أعرضوا عنه : لم يلتفتوا إليه .
سلام عليكم : سلام لكم سلام متاركة ومباعدة .
لا يتغى المحاهلين : لا تزيد صحبة أهل السنة والجهل .
إنك لا عبدي من : إنك لا تقدر أن تقذف نور الإيمان في قلوب من
أحببت تحب .
وهو أعلم بالمهتمدين : والله تعالى العالم من فيه استعداد للهداية والإيمان
فيهديه .
تُخطف من أرضنا : نحازت . ونجعل من ديارنا .
أو نُنْكِنْ فَمْ : لقد جعلنا مكانتهم حرمـاً دـاً من حرمة البيت
حرماً آمنـا العـتبـةـ .

تُجْهِي إِلَيْهِ ثَرَاتٌ : تُجْلِبُ إِلَيْهِ الْأَرْزَاقَ مَعَ أَنَّهُ بِرَادٍ غَيْرَ ذِي ذَرْعٍ + رِزْقًا
كُلُّ شَيْءٍ، رِزْقًا مِنْ لَهْمٍ مِنْ عَنْدَنَا.
لَدَّا

وَكُمْ أَهْلَكْنَا مِنْ : وَكَثِيرًا مَا أَهْلَكْنَا مِنْ أَهْلَى قَرْيَةٍ .
قَرْيَةٍ

بَطَرْتُ مَعِيشَتَهَا : بَغْتَ، وَخَجَرْتَ، وَلَمْ تَحْفَظْ حُقْقَ اللَّهِ .
فَتَلَكَ مَسَاكِنَهُمْ لَمْ : فَتَلَكَ مَسَاكِنَهُمْ خَاوِيَّةٌ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِ تَدْمِيرِهِمْ .
تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ

إِلَّا قَلِيلًاً : إِلَّا زَمْنًا قَلِيلًاً إِذَا لَا يَسْكُنُهَا إِلَّا بَعْضُ الْمَارَةِ مِنْ
الْمَاسِفِينَ يَوْمًا أوْ بَعْضُ يَوْمٍ .

وَكَنَّا نَحْنُ الْوَارِثُونَ : وَكَنَّا نَحْنُ الْوَارِثُونَ لِأَمْلَاكِهِمْ وَدِيَارِهِمْ .
لِأُمَّهَا : فِي أَكْبَرِهَا وَأَعْظَمِهَا وَهِيَ عَاصِمَتُهَا .
يَتَلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا : يَلْغَهُمْ رِسَالَةُ اللَّهِ بِالْتَّرْغِيبِ حِينًا وَالتَّرْهِيبِ حِينًا
آخَرَ .

إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ : إِلَّا وَقَدْ اسْتَحْقَ أَهْلُهَا الإِلْلَاكَ لِكُفْرِهِمْ
وَمَعَاصِيهِمْ .
وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ : وَمَا أُعْطِيْتُمْ مِنْ مَالٍ وَشَيْءٍ .
شَيْءٍ *

فَمَنَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا : فَهُوَ مَنَاعٌ قَلِيلٌ تَسْتَعْوِنُ وَتَتَرَبَّوْنَ بِهِ فِي الدِّيَانَةِ
يَغْنِي .

وَمَا عَنَّدَ اللَّهَ خَيْرٌ : وَمَا عَنَّدَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ - مِنَ النَّعِيمِ الدَّائِمِ خَيْرٌ وَأَيْسَى
وَأَيْقَنَى . مَنَاعَ الدُّنْيَا الزَّائلَ .

أفلا تعقلون : أفلأ ندركون ان الباقي خير من الغائب؟
أفمن وعدناه وعدا : أفنون وعدنا على طاعتنا الجنة.
حسنا

فهؤلاء الآية : فهو مدركه وسائز إليه.
من المحضرین : من المحضرین للعذاب يوم القيمة.

* * *

الشرح

الحكمة في إنزال القرآن مجتمعاً:

يذكر الله قربنا بفضله ورحمته بهم يائاه سحانه - إنزال القرآن الكريم متتابعاً بعضه إثر بعض على ما انتصبه الحكمة، وترشد إليه المصلحة، وهذا الأسلوب شديد التأثير والتأثير، وذلك أن النفوس تحتاج في كل يوم إلى التذكرة بالثواب والعقاب والترغيب والترهيب، لستقىم على الحق فتؤمن به الله وتستجيب لطاعته وعبادته. كما أنهم في كل يوم يتسمون فيه الهدى لضالتهم والإجابة عما يحير عقولهم، ويشير القلق في نفوسهم فيكون ذلك أدعى إلى إيمانهم، ورسوخه في نفوسهم وامتلاه قلوبهم نوراً به.

اما لو نزل القرآن حلقة لعجزوا عن الوفاء بطالبه ولم يتحقق ذلك أثره في النفوس من الذكرى والعبرة مثل نزوله مجتمعاً.

موقف وعبرة :

ويفهم القرآن الحجة على مشركي قريش ، فسرق لهم حسورة
بشرقة لذوي الغوس الخالصة من أهل الكتاب ، وهم يتلقون القرآن ،
فيعلمون إليه ويؤمنون به ، لأنهم وجدوا في كتابهم الشري به وانطباق
الأوصاف عليه ، فالكتاب كله من عند الله من أمن بأوله ، عرف الحق في
آخره ، فاطمأن إليه وأمن به **الَّذِينَ هَادُوهُمْ أَكْتَبْتَ بِهِ تَلَوْنَهُ حَقٌّ**
لِلَاوَيْهَ أَوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ .^(١)

وهو لا ، يقولون عند قراءة القرآن عليهم : إنه من عند ربنا ، إن
المعين واحد ، والمصدر واحد ، وهذا فقد كنا مصدقوه قبل نزوله ، لأن
وجدنا في كتابنا سمة محمد - صل الله عليه وسلم - وسمات كتابه .

قال سعيد بن جبير - رضي الله عنه : نزلت هذه الآيات في سبعين
من القبيين بعثهم التجاخي ، فلما قدموا على النبي - صل الله عليه
 وسلم - فرآ عليهم : «يس والقرآن الحكيم» حتى ختمها ، فجعلوا
 يكتبون ، وأسلموا .^(٢) هؤلاء المؤمنون من أهل الكتاب يتحمّلهم الله
 الثواب مرتين مرة على إيمانهم ، وأخرى على إيمانهم بالقرآن وذلك
 لصبرهم على هوى النفس والميل إلى الانحراف ، وصبرهم على الأذى
 والخربة من قومهم ، ومن المشركين حين اتبعوا رسول الله - صل الله
 عليه وسلم - وأمنوا برسالته . وقد ورد في الحديث الصحيح عن أبي موسى
 الأشعري - رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ثلاثة
 يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بيته ثم آمن بي ، وعبد

(١) تفسير ابن كثير

(٢) سورة القراءة / ١١٦

مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت له أمة فادها فاحسن تاديهما ثم اعتنقتها فتزوجها^(١) .

ثم يعرض القرآن للقيم والفضائل التي أهلت هؤلاء لينالوا الفرنس من رزقهم في صورة مرتبة تدفع كل مسلم إلى الاقتداء بهم : ليال درجتهم ويحظى بعكاظتهم عند ربهم ، وهذه القيم هي :

- أنهم يتصفون بالسماحة والترفع عن الذاتيات ، والاستعلاء على هوى النفس ، فيقابلون الأذى بالعفو والصفح ، والقبح بالكلمة الطيبة والسخرية بالطમاء والهدوء .

- وهم يجودون بما وهبهم الله من المال الحلال في سبيل الخير فيبذدون زكاة أموالهم ، ويفقدون على أقربائهم ويساعدون البائسين ، ومن لا يسألون الناس إلخافاً وهؤلاء سمعوا بأنفسهم عن التخل ، وأثروا الآخرة على الدنيا .

- وهم إذا سمعوا كلاماً لا خير فيه ولا فائدة منه كالهذر الذي يفسد خلق الإنسان ، أو كالبذيء من القول فإنهم لا يستركون فيه ، ولا يشورون على أهله ، لأن قلوبهم مشغولة بطاعة الله وجوارحهم تتبع بحمد الله ، وهذا فهم يقولون لأهل اللغو في أدب ودعاء لهم ، وترفع عن سلوكهم : إن لنا خاتمة وطريقاً غير طريقكم ، فاعيالنا لا تشابون علينا ، ولا تعاقبون ، وأعمر لكم لأنسال عنها ، سلام عليكم سلام متاركة وتوديع ، فإننا لا نرغب في صحبتكم ، ولا نود مخالفتكم .

روى محمد بن اسحق انه « قدم عل رسول - الله صلى الله عليه

(١) المترجم الحازمي بدم ٩٧ وسلام بدم ١٥١

وسلم - وهو يعكة عشرون رجلاً من نصارى الخبرة حين بلغهم خبره، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه، وتكلمواه وسائلوه، ورجال من قريش في أندائهم حول الكعبة فلما فرغوا من مسأله عما أرادوا دعاهم إلى الله، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوه فاقت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله وأمروا به، وصدقواه، وعرفوا منه ما كان يوصي لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم «أبو جهل بن هشام» في نفر من قريش فقالوا لهم: «سبّكم الله من ركب، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترثادون لهم، لتأتكم بخبر الرجل، فلم تطمئن بمحالسكم عنده حتى فارقتم دينكم، وصدقتموه فيما قال، مارأينا ربك أحق منكم»، فقالوا لهم: «سلام عليكم لأنجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه لم تأت
أنفساً خيراً».

وقد كان موقف المؤمنين من أهل الكتاب الذين قطعوا الفيافي والبحار أثر على قلب الرسول - صلى الله عليه وسلم - فتمنى أن يؤمن أهله وقومه؛ ليفوزوا بالثواب العظيم في الدنيا والآخرة، فاوْحى الله إليه - إذا لم يتحقق ما يأمله - تسرية له، ودفعاً للأسى عن نفسه قائلاً: «إنه - يا محمد - لا يستطيع أن تختلف نور الإسلام إلى قلوب من تحب، وإن بذلك كل عبود، فيما عليك إلا البلاغ، والله وحده العالم بذلك الاستعداد لطاعته خيهديهم إلى الإيمان به دون غيرهم». قال تعالى: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ هُدُنُّهُمْ وَلَكُنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ»^{١١}.

وقد ورد أن الآية نزلت في «أبي طالب» فقد أخرج عبد بن حميد ومسلم والترمذى والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال: «ما حضرت

أبا طالب الوفاة أتاه النبي - صلى الله عليه وسلم - وقال يا عياه: قل لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله يوم القيمة، فقال: لولا أن تُعْرِّي قريش يقولون: ما حله على ذلك إلا جزعه من الموت لا فررت بها عنك، فأنزل الله (إِنَّكَ لَا تَهِدِّي مِنْ أَحْبَبَكَ) الآية.

اعتذار باطل:

(ثم يخبر القرآن عن اعتراف بعض الكفار بأنه أهدى ولكنهم يعتذرون عن الإيمان به بحججة واهية) فيقول: قال كفار قريش: إننا إن اتبعنا ما جئت به من أهدينا تائب علينا القائل، ونجلوها عن أرضنا وديارنا، قالوا ذلك ونسوا أن الله وحده هو الحافظ، وأن قوى الدنيا كلها لا تزال منهم وهم في حمى الله، ولكن الإيمان - وهو مصدر الأمان - لم يخالط قلوبهم؛ وهذا رد الله عليهم حجتهم كائفاً ضعفها أمام عقوتهم وأعيبهم فقال: إن حجتكم واهية، واعتذاركم مرفوض، فقد حفظنا دماءكم، وجعلناكم في بلد آمن، وحدم معظم فكيف يكون هذا الحرم مصدر الأمان لكم في كفركم ولا يكون أماناً لكم وقد أسلتموا وأوتيتم إلى رحني شديد؟ إن هذا الحرم الآمن يسوق الله لكم فيه الأرزاق من كل مكان، ولكن أكثركم جهله لا يعلمون أين يكون الأمان، وابن ي تكون الخوف، فالذي منع الأرزاق هو الذي يُخْسِي ويُغْنِي لا سواه.

البطر سبل اهلاك:

وكثر من أهل القرى منعاهم المال؛ ليكون فيهم الآمن، وليسكرروا رسمهم عليه، فيعوا وسعوا في الأرض فاداء، فدمر الله أمواهم وخرب ديارهم، فتلث مساكنهم خاوية بما ظلموا وأفسدوا، لم يسكنها إلا عابرو

السبيل يوماً أو بعض يوم ، فاحدروا أن ينزل بكم مائزلاً بهم ، وكتنا الوارثين
لهذه القرى حيث لم يفلت أحد من أهلها من عقاب الله فصارت ميراثاً ، الله
الخالق ، لأنه وحده الباقى بعد خلقه . ومثل هذه الآية قول الله تعالى :
**وَضَرَبَ اللَّهُ مُثْلًا فِرِيهَ كَانَتْ هَامَةً مُطْعِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغْدًا مِنْ
كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرُتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَإِذَا قَاهَا اللَّهُ لِبَاسُ الْجَنُوحِ وَالْحَوْرِ
عِمَّا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ⑪١١٦١١٧ على أن ربك - يا محمد - لم ينزل عقابه
على هذه القرى حيث يبعث في كبراهار سولاً يدعوهم إلى الإيمان بالله بالترغيب
حياناً، وبالترهيب حيناً آخر وإنما كان إرسال الرسول في أم القرى، لتكون مصدراً
لأشعاع، ومركز إعلام تبلغ منه الرسالة إلى الأطراف، كما أن أهل
العاشرة يتصرفون غالباً بالذكاء والفتنة فهم لذلك أكثر استجابة إلى
الإيمان من غيرهم ، وقد أرسل الله محمداً - حصل الله عليه وسلم - في مكة
أم القرى العربية وعاصمتها ليذرهم عاقبة المكذبين قبلهم بعد أن
 جاءهم النذير . ثم يقول الله - سبحانه - **وَنَحْنُ لَا نَهْلِكُ الْقَرِيَّ الَّتِي نَبْعَثُ
فِيهَا الرَّسُولَ لِيَرْشِدَ أَهْلَهَا إِلَى الْحَقِّ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْتِغْنَامِ مَعَ سُنْتِ
الْفَطْرَةِ، فَيَرْمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَيَعْبُدوهُ وحْدَهُ - إِلَّا إِذَا ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ، فَلَكَذِبُرَا
وَجَحْدُوا، فَلَا نَهْلِكُ قَرِيَّةً وَهِيَ مَؤْمَنَةٌ، وَلَكُنْ يَنْزَلُ بِهَا هَلَاكَنَا وَهِيَ
عَاصِيَةٌ آثِمَةٌ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقَرِيَّ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** ⑪١١٨١١٨**
تعالى ربنا عن ذلك . وتحذر الآيات من الفتنة بالدنيا فقول : إن هذا
العطاء من الأموال والأولاد إنما هو هبة من الله خلقه لكم تتمتعون به في

(١) سورة التحول / ١١٦

(٢) سورة هود / ١١٧

الدنيا وهو خليل أمام ما عند الله؛ لأن هذا الممتع قاتل، وما أعدده سبحانه
للطائعين دائم ويacy، والذين يدركون اليون الشاسع بين ممتع الدنيا، وما
عند الله هم أصحاب العقول الذين يعرفون الخير من الشر، ويؤثرون
الدائم على الممتع.

ثم تؤكد الآيات ترجيع ما عند الله على ما في الدنيا، فمن وعدناه على
طاعتنا وعبادتنا الحسنة فهو لاقيه في الآخرة حتفا؛ لأن وعد الله لا يختلف،
كم من جحد فضلنا عليه فمتعناه بممتع زائل، وأثر لذة عاجلة على لذة آجلة
لاتنفد، ثم يساق مكرها يوم القيمة أمام الله؛ لبيان عقابه؟ والآية صورة
معبرة للمفاضلة بين المؤمنين والكافرين، فهل يساوي العاقل بيهما؟

* * *

وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ
 شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَرْعَمُونَ ۝ قَالَ الَّذِينَ حَقَ عَلَيْهِمْ
 الْقُولُ رَبَّنَا هَنْزَلَاهُ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا
 تَبَرَّأَنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيمَانًا يَعْبُدُونَ ۝ وَقَبْلَ أَذْعُوا
 شُرَكَاءَ كُمْ فَدَعُوهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِبُوا لَهُمْ وَرَأُوا الْعَذَابَ
 لَوْا نَهْمَمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ۝ وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا
 أَجْهَمُ الْعُرُمَلِينَ ۝ فَعَمِيتَ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِيرَ
 فَهُمْ لَا يَنْتَهُونَ ۝ فَإِمَامَنَ تَابَ وَهَامَ وَعَمَلَ
 حَسَلِحَا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ۝ وَرَبُّكَ يَحْلُقُ
 مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْخِرَةٌ سَبَحَنَ اللَّهُ وَتَعَنَّ
 عَمَّا يُرِكُونَ ۝ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُ صَدُورُهُمْ
 وَمَا يُعْلِمُونَ ۝ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ

فِي الْأُولَئِنَ وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ⑥٦
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ الْأَلَلَ سَرَمَدًا إِلَى يَوْمِ
 الْقِبْلَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَا بَنِيَّكُمْ بِرْضِيَّاً أَفَلَا يَسْمَعُونَ ⑥٧
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرَمَدًا إِلَى يَوْمِ
 الْقِبْلَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَا بَنِيَّكُمْ يَلْتَمِلُونَ كَيْنَةً فِيهِ
 أَفَلَا يُنْصَرُونَ ⑥٨ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الْأَلَلَ وَالنَّهَارَ
 لِتَكُونُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ قَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ⑥٩
 وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِ اللَّهِ إِذْنَكُمْ تَرْعَمُونَ ⑥١٠
 وَزَرَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَا تُوا بِرْهَنَكُمْ فَعَلِمْنَا
 أَنَّ الْحَقَّ إِلَهٌ وَظَلَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ⑥١١

معاني الكلمات والجمل:

ويوم يناديهم : ويوم ينادي الله المشركين يوم القيمة نداء إهانة وتحقير.

أغورياهم كما غورنا : أصلتناهم باختبارهم كما ضللنا.

تبرأنا إليك : تبرأنا منهم وما اختاروه من الكفر والمعاصي .
ما كانوا إلينا : هم ما كانوا يعبدوننا ، وإنما كانوا يعبدون الآوثان .
يعبدون
ادعوا شركاءكم : استغفروا بالهندكم التي عبدتوها لتدفع عنكم
عذاب الله .
فلم يستجيبوا لهم : فلم يستجيبوهم ، ولم يتتفعوا بهم .
لو أنهم كاتروا : وقمنا لو كانوا من المهتدين المؤمنين في الدنيا .
يهدون
ماذا أحييتم : سؤال توجيه : ملأ أحيائهم رسلي ؟ هل صدقتموهم
المسلمين أم كذبتموهم ؟
فعميت عليهم : فخفت عليهم الحرج ، وأظلمت عليهم الأمور
الأنباء .
فلم يعرفوا ما يقرئون .
لا يتساءلون : لا يسأل بعضهم بعضاً .
ما كان لهم الخيرة : ليس لهم الاختيار باصطفاء بعض الاشياء وترك
بعض .
وتعالى عما يشركون : تبرأ الله العظيم أن ينزع عنه أحد في ملوكه أو يشاركه
في اختياره .
ماتكث صدورهم : ما تخفية قلوبهم من الكفر والعداوة .
وما يعلنون : وما يظهرونه على الشهيم .
في الاولى : في الدنيا .
وله الحكم : وله القضاء النافذ في كل شيء .
ارأيتم : اخروا في .

سِرْمَدَا

لَتَسْكُنُوا فِيهِ : لَتَسْرِحُوا بِاللَّيْلِ مِنْ نَصْبِ الْحَيَاةِ وَهُمْ مُهَمَّهَا .
وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ : أَخْرَجْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا يَشَهِّدُ عَلَيْهِمْ ، وَهُوَ
شَهِيدًا لَنَفْسِهِمْ .

هَاتُوا بِرَهَانَكُمْ : اذْكُرُوا حِجَتَكُمْ عَلَى مَا كَتَمْتُ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ
فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ : قَعِلَمُوا حِينَئِذٍ أَنَّ الْحِجَةَ الْبَالِغَةَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَّ الْحَقَّ
لِلَّهِ وَحْدَهُ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا : وَغَابَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَتَحْرِصُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا
كَانُوا يَفْتَرُونَ وَيَكْذِبُونَ بِهِ مِنَ الشَّرَكَاءِ وَالْأَنْدَادِ .

الشرح

موقف الخزي للمشركون يوم القيمة: واذكر ليها الرسول - لقومك
حال المشركون يوم القيمة، يوم يقول الله لهم توبيا وتقريعا: اين هؤلاء
الشركاء والآلهة من الملائكة، والجن، والأصنام، والأنداد الذين
عبدتموهن في الدنيا؛ ليخلصوكم، ويدفعوا عنكم ما نزل بكم اليوم من
العذاب؟

فيجيب قادة الضلال والكفر الذين وجب عليهم العذاب ولزمههم
الوعيد قائلين: ربنا إننا لم نغواهم قراراً، ولكن بطرق الوسوسه وتنزيه
القيبح، فهم كانوا مختارين حين آمنوا بالعقائد الباطلة، إننا نبرأ منهم يا
ربنا فقد ارتكبوا جرائمهم استجابة طوى أنفسهم، فلا لوم علينا فيما

فعلوا، فهم ما كانوا يعبدوننا، وإنما يعبدون الآوتان والأصنام بما زرت
 لهم أهواهم، ثم يقال لهم تهكما: نادوا أهلكم التي عبدتموها لتقذفكم من
 عذاب الله، فيستجيبوا مفهورين ويدعووا أهلكم وقد أحببوا بالخيرة
 والدهشة، ولم يكن متظراً غير ذلك، ولكنه الإذلال لهم، والهدف من
 هذا الحوار كشف جرائمهم وفضحهم على رؤوس الأشهاد، قد عبدوا
 من لا ينفع له، ولا فائدة منه.

لقد رأوا العذاب، والموقف السابق حزء منه - وأيقنوا أنهم صانرون
 إلى النار، وحيثما يتمسون - حيث لا تفيض الأمان - لو كانوا في الدنيا قد
 اهندوا للحق، فآمنوا بالله رب العالمين.

ثم يسألون عن تكذيبهم الرسول توبيخاً وتانياً، فیناديهم ربهم، وقد
 وقف البشر في صعيد واحد، منهم المؤمن ومنهم الكافر: ماذا أجبتم رسلي؟
 هل صدقتموه أم كذبتموه حين دعوكم إلى التوحيد وعبادة الله وحده؟
 فيستولي عليهم الوجوم، وتخفي عليهم الحجج، فلم يعرقوا ما يقولون،
 ولم يجدوا عذرًا ينطقون به، فهم حيارى لا يسأل بعضهم بعضاً، لأنهم
 جميعاً في حفاء الحجة عاجزون عن الجواب.

فاما الذين تابوا من المشركين، ورجعوا إلى الحق فصدقوا في إيمانهم
 بربهم، وعبدوه وحده، وصدقوا بيته، والترموا بما جاءهم به من الوحي -
 فهو لاءٌ من الفائزين برضوان الله عز وجل. قال الصاوي: «والترجي في
 القرآن بمنزلة التحقق، لأنَّه وعد كرييم من رب ورحيم، ومن شأنه - تعالى -
 أنه لا يخلف وعده»⁽¹⁾.

(1) حاشية الصاوي على الحلالين ٢٢٣/٢

الخلق والاختيار لله وحده:

إن ربك - يا محمد - هو الذي يخلق ماشاء، ولا يستطيع أحد أن يزيد أو ينقص في خلق الله، ولا أن يعدل أو يبدل فيما خلق الله واختار. إنه - سبحانه - بختار من يشاء لأداء الرسالة وإصلاح الدنيا، وهداية البشر، فلا يملك أحد أن يتدخل في إرادته فيقترح شخصاً للرسالة، فالله أعلم حيث يجعل رسالته؛ وهذا قال مقاتل: نزلت في «الوليد بن المغيرة» حين قال: «الولا نزول هذا القرآن على رجل من القراءين عظيم»^(٢) فرد الله بقوله: إن هؤلاً ليس لهم الاختيار في شأن أنفسهم ولا في شأن غيرهم، لأن الأمر كله لله. إن الإيمان بهذه الحقيقة يبعث الاستقرار والطمأنينة في قلوب المؤمنين بها، فهم لا يخطئون لما يحمل بهم من مكره، ولا يحزنون على ما لم يتحقق من آمالهم؛ لأن الله هو الذي يختار، وعلى المؤمنين أن يتقبلوا ما ينزل بهم بعد أن يذروا ما في وسعهم وطاقتهم من جهد، والأمر بعد ذلك للخالق سبحانه وتعالى - وهذا فالمسلم لا يقدم على إصدار قرار في قضية حتى يستعين بربه، ويسأله الخيرة فيها، فيصل ركتعين صلاة الاستخاراة، يقرأ في الأولى بعد الفاتحة «قل يا أيها الكافرون» وفي الركعة الثانية «قل هو الله أحد»، فعن جابر بن عبد الله قال: كان النبي - صل الله عليه وسلم - يعلمنا الاستخاراة في الأمور، كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: إذا هم أحدهم بالأمر فليبركم ركتعين من خير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني استخرك يعلمك، واستقدرك بقدراتك، وأسألك من فضلك العظيم، فلذلك تقدر ولا أقدر، وتعلم، ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير

(٢) تفسير الواہبی ج ٢ ص ٣٠

لني في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ، أو قال عاجل أمري وأجله
 فاقدره لي ويسره لي ، ثم بارك لي فيه ، اللهم وإن كنت تعلم أن هذا الأمر
 شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ، أو قال حاصل أمري وأجله فاصرفه
 عنّي واصرفني عنه ، وافدر لي الخير حيث كان ، ثم رضي به ، قال :
 وسمى حاجته ^(١) اسْبَحْنَ اللَّهَ وَتَعَلَّمْ عَنْ بَشِّرِكُونَ تَنَزَّهْ - سبحانه وعلا عن
 إشراك المشركين ، فليس لأحد أن ينماز عه اختيارة أو يزاوجه لعلمه باستعداد
 خلقه وعافي مصلحتهم في دنياهم وأخراهم .

ثبتت للرسول - صلى الله عليه وسلم - :

وربك - يا محمد - عالم بما تخفيه قلوب المشركين من الكفر والخذل
 والعداوة لك وللمؤمنين ، وعالم بما تتعلق به أستheim من الطعن والخرابة
 لك وللمؤمنين أيضاً ، وهو الله الذي لا إله غيره ولا معبود سواه ، فله
 وحده الشاء والشكر في الدنيا والآخرة ، لأنّه التفضل على عباده بالنعم في
 الدارين ، وله وحده القضاء في عباده ، لا راد ولا مبدل لحكمه ، وإله
 يرجع البشر ، فيقضي بينهم بحكمه ، ويجزي كل إنسان على عمله إن خيراً
 وإن شراً .

من نعم الله الليل والنهار :

قل - يا محمد - للجاحدين من كفار مكة : أخبروني إن جعل الله
 عليكم الليل دائمًا مستمراً بظلماته إلى يوم القيمة ، لا يعقبه نهار تستفشوون
 به ، فمن المعبود الذي يأتيكم بضياء النهار؟ إنه لا يقدر على ذلك إلا الله ،
 أفلا تسمعون ما يقال لكم سماع تدبر ، فتعظوا به ، وتهتدوا وتعلموا أن
 الله هو الذي يهد الحياة بالليل والنهار فتوئمنوا به وتعبدوه؟ ، وفي ذلك تبيه

(١) رواه البخاري «كتاب التهجد» . باب ما جاء في النطوع مثل ومشى . رقم الحديث ١١٦٦

للإنسان إلى إعمال عقله في مشاهد الكون، ليهتدى من لم يؤمن، ويزداد
الذين آمنوا إيماناً. وقل لهم أيضاً: أخبروني لو جعل الله عليكم النهار
مستمراً لا يعقبه ليل إلى يوم القيمة فمن هذا الإله القادر أن ياتيكم بليل
نهارون فيه وتنعمون بالراحة بعد المنشقة والنصب غير الله؟ أفلا تبصرون
هذا الدليل الواضح أمام أعينكم، فتدركوا أن العبادة لا تكون إلا من
أنتم عليكم بذلك دون غيره؟ وفي هذا التناقض في الأداء عند الحديث
عن الليل والنهار ما يهدى الإنسان إلى الإيمان فقد جعل القرآن حاسمة
الليل هي السمع وجعل البصر حاسمة النهار، كي لا يكون للمنكريين
عذر، فقد أمرهم - سبحانه - أن يهتدوا إلى الإيمان إن فكروا بعقولهم
وتدبروا، أو أبصروا بعيونهم وأفروا، وفي ذلك دعوة إلى استخدام
الحواس للكشف عن آيات الله والإيمان بخالق هذا الكون وما فيه.

ومن رحمة الله وفضله على عباده نعمت الليل والنهار فقد جعل -
 سبحانه - بقدراته الليل طلاماً تستقر فيه النفوس، وتستريح فيه الأبدان بعد
معاناة شديدة نهاراً في سبيل تحقيق مطالب الحياة، وقد جعل الله النهار
منيراً، ليهتدى الإنسان فيه إلى مصادر رزقه ولعلكم تشكون ربكم على
نعمه الجليلة التي لا تُحصى وتخلصون له الطاعة، وتدركون أنه وحده
مصدر النعم والعطايا، فتعبدوه، ولا تشركوا به.

الأنبياء يشهدون على أنهم:

واذكر لقومك - يا محمد - هذا اليوم الرهيب، يوم ينادي الله
الحاددين لنعمته، المكريين لفضله، فيسألهم سؤال استئثار وتربيغ عما

زعموا من الشركاء، ليقلدوهم من موقف السؤال والحساب، وقد
واجهناهم بالحقيقة فما حضرنا من كل أمة تبأ يشهد عليها بما أحباته، وتحو
الآية قول الله تعالى: **فَكَيْفَ إِذَا جَنَّا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ رَّسَّابٌ وَرَجَّابٌ**
عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (١) ثم يطلب الله إليهم أن يقدموا الدليل على ما
اعتقدوا من كفر، وما ارتكبوا من آثام، حيث تكتشف لهم أخطاؤهم،
ويدركون أن الحق الله، وأنه لا إله إلا هو، وغائب عنهم ما كانوا يزعمون
من الشرك والشركاء فلا يجدونه ولا يجدونه.



* إنْ

فَرُونَ كَانَ مِنْ قَوْمٍ مُّوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَهُنَّ أَنْتَنَ
 مِنَ الْكُفَّارِ مَا إِنْ مَقَاتِلُهُمْ لَتُنَوَّأُ بِالْعَصْبَةِ أَوْلَى الْقُوَّةِ
 إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَغْرِيَ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِجِينَ ⑥
 وَأَبْتَغِ فِيمَا هَانَكَ اللَّهُ الدَّارُ الْآخِرَةُ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ
 مِنَ الدِّينِ رَاغِبٌ كَمَا أَخْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ
 الْفَدَادِ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْرِدِينَ ⑦
 قَالَ إِنَّمَا أُرِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنِّي أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ
 أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْفَرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ
 جَهَنَّمَ وَلَا يُسْعِلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ⑧ فَخَرَجَ عَلَى
 قَوْمِهِ فِي زِيَّتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
 يَلْبَثُ لَنَا مِثْلُ مَا أَوْيَ فَرُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍ عَظِيمٍ ⑨

وَقَالَ الَّذِينَ أَتُوا الْعِلْمَ وَيَا لَكُمْ تُوَبُّ أَلَّهُ خَيْرٌ لِمَنْ يَعْمَلُ
وَعَمِلَ صَلِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٦﴾ فَخَفَّتَا يَدِهِ
وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ فِتْنَةٍ يَنْصُرُونَ وَلَا هُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴿٧﴾ وَاصْبِحَ الَّذِينَ
عَنْ دِينِهِمْ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَمَكَانُ اللَّهِ يَضْطُطُ الْرِزْقُ
لِمَنْ يَأْتِهِ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا
نَحْسَفُ يَنْتَ وَمَكَانُهُ لَا يُفْلِحُ الْكُفَّارُونَ ﴿٨﴾ تِلْكَ
الْأَذْرُ الْآخِرَةُ تَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ
وَلَا فَسَادًا وَالْعِنْقَبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَاتِ
فَلَمْ يَخِرْ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالْقَيْئِ فَلَمْ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا
الْبَيْتَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾

معاني الكلمات والجمل:

كان من قوم موسى : كان من جماعته وعشيرة.

بغض عليهم : تجبر ونكر عليهم.

الكنوز : المال المدفون في باطن الأرض.

لتنوه بالعصبة أولى : لتنقل على الجماعة الكثيرة الأشداء.

القرفة

قال له قومه : قال له قومه من بني إسرائيل.

لانفرج : لا يبطر، ولا يستغacher.

إن الله لا يحبث : إن الله لا يحب الدين تعطيفهم أمواهم فلا يشكرون الفرحين .
ردد

وابتغ فيما أنراك الله : واجعل ما أعطاك الله من المال طريقاً إلى رضا الدار الآخرة الله .

ولاتنس نصيبك : ولا تترك حظك من الدنيا من التمتع بالحلال .
من الدنيا

واحسن كما أحسن : واحسن إلى خلق الله كما أحسن الله إليك.

الله إليك

ولا تبع الفساد في : ولا تطلب بهذا المال البغي والاعتداء على خلق الأرض الله .

أوتيه على علم : أعطيت هذا المال لعلم عتلي بمقدار جمعه عندى وتحصيله .

من القرون : من الأمم السابقة .

من هو أشد منه قرفة : من هو أشد منه بطشا وأكثر مالا .
وأكثر جمعا

ولسائل عن : لا يسأل الله الكفار عن ذنوبهم ، لأنه علیم بها .
ذنوبهم المحرمون

في زينة : في أظهر زينة وأكملها .

إله الذي حظ عظيم : إنه الذي نصيّب واقر من الدنيا .

الذين أوتوا العلم : هم العقلاء من أهل العلم والفهم والاستفادة .

وبلكم : هلاك لكم ، والمقصود أرندعوا وأنزجروا .

ولايُفَاهَا إِلَّا : ولا يتبع هذه النصيحة إلا الصابرون .

الصادرون

فخفنا به وبداره : جعلنا الأرض تغور به وبكنوزه .

الأرض

فما كان له من فئة : ما كان له أحد من الاصحاء والاعوان .

يصرؤنه

من دون الله : يدفعون عنه عذاب الله .

من المتضررين : من المستعفين عن عذاب الله .

تمثوا مكانة بالأسى : تمثوا منزلته وغناه بالأمس القريب .

وهي : كلمة يراد بها التندم والتعجب مما حصل .

يقدر : يضيق .

من الله علينا : لطفنا ، وتفضل علينا .

لطفنا : لا هلكنا كـ أهلكت فارون .

لا يريدون علوًّا في : لا يريدون التكبر والطغيان ولا الغلبة .

الأرض

ولا فساداً : والعدوان في الدنيا .

والعقاب للمحققين : والعاقبة المحمودة للذين يخشون الله ويرافقونه .

الشرح

موقف وعبرة :

إن قارون كان من عشرة موسى - عليه السلام ، وفي الأسرة الواحدة يوجد الصالح كي يوجد الطالع ، فموسى كان مثلاً لرفع الظلم والذل عن الضعفاء ، وكان قارون مثلاً للبعي والظلم والعداون ، فكان يغضب الأرض من أصحابها ، كما يفعل الأغبياء ، لقد خجبر قارون واستعمل على قومه بسبب ما منحه الله من المال والكنوز الكثيرة التي يدخر فيها المال الفائض عن استعماله وحاجته بل إن مقاييس هذه الكنوز تُعي المجموعة من الرجال الأقوباء ، من أجل ذلك بغي وتجبر . ولكن قارون وأمثاله في كل عصر يجدون من يرشد وينهض بهم إلى طريق الحق ، ويردوهم إلى المنهج القويم الذي يرضاه الله في التصرف بهذا الثراء ، وإلى مراقبة الله فيما أنعم عليهم وإلى التوازن بين متع الدنيا وثواب الآخرة .

إِذْ قَالَ لَهُرْ قَوْمُهُ لَا تَنْفَرْخْ فَنَصَحَهُ قَوْمُهُ وَعَشِيرَتِهِ قَاتِلِينَ : لَا يَسْتَوِ
عَلَيْكَ الْبَطْرُ لِكَثْرَةِ مَالِكَ ، لَأَنَّ ذَلِكَ يُزِيدُكَ طَغْيَانًا ، وَيُنْسِيكَ نِعْمَةَ رَبِّكَ
وَفَضْلِهِ عَلَيْكَ وَمَا يُحِبُّ عَلَيْكَ مِنَ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ .

ثم أرادوا أن يردوه إلى حالقه فقالوا له : إن الله لا يقرب إلى جواره المتباهين بالمال المفتويين بزخارف الدنيا ، بل يبغضهم ، ويبعدهم عن رحمته ، ثم ساقوا إليه نصيحة أخرى فقالوا له : اسلك سبيل الاعتدال فيها وهبك الله من المال واستعمل هذه النعمة في طاعة الله ورضاه تفر في الدنيا والآخرة وفي الحديث الشريف : «اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحنك قبل سقمك ، وعناك قبل فدرك ، وفراحك قبل

شغلك ، وحياتك قبل موتك^(١)

ثم يكملون له المنهج المترافق الذي يحقق للفرد وللجماعة الأمان في الدنيا والنعيم في الآخرة فيقولون له : لا تترك نصيحتك من متع الدنيا فقد خلق الله طيبات الدنيا ، ليستمتع الناس بها ، وأمرهم أن يكدر حوا في الأرض ؛ ليتمكنوا منها ، وبذلك تعمر الأرض وتتجدد رحاها ، وينعم الإنسان بالأمن ، ويشعر بفضل ربه عليه ، فيقبل على طاعته وعبادته ، وبهذا المنهج الذي أراده الله للإنسان يرتقي الفرد بروحه ، ويسمو بآياته من خلال حياة طبيعية معتدلة ، لا حرمان فيها ، ولا عذاب عليها .

وقد روي عن ابن عمر : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » . ويستمر العقلاً من قوم فارون في نصحهم له ولكل ثري أبطره ماله وأضلهم فيقولون : أحسن إلى عباد الله ، كما أحسن الله إليك ، فهذا المال هبة من الله راحسان ، وعليك أن تقابله بحسن التصرف فيه فتعين به خلقه وتنظر إلهم بوجه خلق ورقة طبع ودمائة خلق وتشفي عليهم إذا غابوا .

ثم يقولون له : ولا تجعل مقصداك وغاياتك البغي والاستعلاء في الأرض ، فتسيء إلى الله وتتفق المال فيها حرم الله ، وتعسّك عن أصحابه من الفقراء والمحاجزين ، لأن الله لا يحب من كان مجرماً باهباً ، بل يحبه ، ويبعده عن رحمة .

(١) رواه الحاكم في كتاب الأدب بباب : ما يقول إذا أمسح

قولة مغرور:

وأمام هذه النصائح رد فارون على قومه بما يصور فساده وطغيانه
وتكبره عن قبول الموعظة فقال:

إما أورتت هذا المال على علمي الذي يسر لي جمعه وتحصيله ، فلياذا
نفرضون علي طريقة خاصة للتصرف فيه ، وتحكمون فيما أملك؟ وما
جئت هذا المال إلا بجهدي الخاص وبالعلم بمقدار ثمينه ولو لا رحمة الله
عنه ومعرفته بفضل ما وهبني هذا المال . وهذا قول كل مغزور حمس الله
على قلبه ينسى مصدر النعم ، ويفتئه المال ، فيظن أن علمه هو الذي حقق
له ثراءه ، وهذا فهو غير محاسب على إنفاقه المال في الخير أو في الشر .
فجاءه التهديد جواباً على قوله الباغية في قول الله تعالى : «أَوْلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ
اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقَرُونِ مِنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُهُمْ
هُدًى اجْهَلُ الْمَغْرُورِ حِينَ ادْعَى أَنَّهُ حَصَلَ الْمَالَ بِجَهْدِهِ وَعِلْمِهِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ
أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْأَمْمَ السَّابِقَةَ مِنْ هُوَ أَقْوَى مِنْهُ جِدًا وَأَشَدُ بَطْشًا
وَأَكْثَرُ جَمْعًا لِلَّامِوَالِ؟» : وفي هذا الأسلوب تعجب وتوبخ على اغتراره
بقوته وكثرة ماله . وتنتقل الآيات من تهديد فارون إلى تهديد المجرمين
جيئوا بما يؤذن بغضب الله عليهم فتقول : إيه - سبحانه وتعالى - حين يزيد
عقابهم وإنزال حكمه عليهم لا يتألم عن مقدار ذنبهم ، لأن الله علیم به ،
ولا يعاتبهم عليها ، فليسوا أهلاً للسؤال ولا العتب في قال تعالى : «فَ
هُمْ مِنَ الْمُعْتَدِينَ ⑯ ⑰

اغترار بماله وابتلاء للمؤمنين :

لم يكتف قارون بالردد على قومه بلسانه رافقاً نصحيهم وعذبائهم ، وقد أرادوا أن يردوه إلى النجح المستقيم ، بل غادى في غروره وكرياته وأجاب مرة أخرى بأسلوب يستذلّ الضعفاء ويكسر قلوب الفقراء والبائسين ، ويبعث الحقد والكراء.

لقد خرج مظهراً تعالى والغروز في أظهر زينة ومعه الجواري والغلان وكثير من أتباعه وقد تحملوا بالذهب والحرير ، والعقالة في كل أمة يرفضون سلوك قارون وأمثاله ، لأنهم يرون أن في ذلك غزيفاً لوحدة الأمة وتخاذلاً أمام أعدائها ، وهذه الصورة لقارون تكرر في كل زمن وفي كل مجتمع ، فكثير من أصحاب الثراء يقيمون الحفلات ، ويصنعون الولائم تفاخرًا بما هم وتعالياً على غيرهم من الناس . ولهذا كان عقاب قارون نذيراً لاصحاب الكرياء والتعالي . وأمام زينة قارون كان اختبار المؤمنين ، فلما رأه ضعاف الإيمان من تستهون بهم زينة الأرض وتبرهن لهم ببريقها وزخرفها تهافت نقوسهم وتهافت وصال لعابهم على ما فيه قارون ، وقالوا : ياليت لنا من الأموال والثراء مثل ما أعطى قارون فنتعم ، ونستمتع بزخارف الحياة كما يتمتع إنه ذو نصيب وافر من الدنيا .

وهذه الصورة لضعفاء الإيمان الذين يطير لهم للهال من الرجال والنساء لا يستشعرون نعم الله التي تكرر كل يوم عليهم ، فتبغضي كل منهم أن ما في يد الآخر من نعمة تكون له سواه كاتت حديقة باسقة ، أو سيارة فارهة ، أو قصرًا مشيداً .

وهناك طائفة تتطلع إلى ما هو أعلى وأكرم وهو أقوباء الإيمان

المصلون بالله، وهم العقلاء أهل العلم والفهم الذين عرقو مهجر الله
فأتبغوه واستقاموا عليه، هذه الطائفة لم يزثر فيها قارون بزنته وكبرائه،
ولهذا فقد حزن للنفوس التي تهافت وضفت أمام الشراء والغنى، نم
قالوا لهم في أسى وحسرة عليهم: **بِاَلْكُمْ وَخَرَا** . كيف تهابوا
نفوسكم، ويسيل لعابكم على منابع الدنيا الفاني؟ إن حزاء الله الذي أعدكم
في الآخرة لن آمن بالله وعمل الأعمال الصالحة خير مما تنتظرون
وتشتهون . . ذلك لأن ما عند الله باق وذاك فان، ولا يتأتى هذه المترفة إلا
الذين جاهدوا أنفسهم، وانتصروا على شهواتهم، واستعلوا بإيمانهم على ما
في يد قارون وأمثاله، فالتزموا الطاعات واجتنبوا المحرمات، وتمتووا ثواب
الله في رضا واطمئنان .

العقاب للباءين :

ولم تطل فتنة «قارون» بهؤلاء الضعفاء، لأن الله أراد بها ابتلاء
لإيمانهم وعبرة لكل منكر جبار فكانت نهاية «قارون»:
فَخَسَقَنَّ يَهُودَارِهِ وَرَبَادَارِهِ أَلْأَرْضَنَ، فغارت الأرض به وبكنوزه وابتلت
وابتلعت داره، وهو في باطن الأرض التي علا فوقها ونكرو وطغى، وفي
هذا تحذير وعبرة لكل ذي عقل؛ كي يعود إلى نفسه، وسيطر على هواء،
فيترك البطر والتعالي على الناس، لثلا يتأتى عقاب «قارون» فيخف الله
به وبماله الأرض، بل إن الأمة المسلمة لها في «قارون» عبرة تهدىها إلى
ردها، وتعيدها إلى رشدتها، وتلتزم بقيم دينها فتكون أمينة على ما
استخلفها فيه من مال، فتنتفقه في الخير، وتسخر في طاعة الله، ليكون
وسيلة لتعمير الكون وإسعاد الإنسان، أما إذا بطرت وأفسدت، وطفت

وتجبرت ، فإنها ستهري وتدثر من الوجود ، ولا تجد حيثاً من يدفع عنها العذاب كما قال الله عن «فارون» : **«فَكَانَ لَهُ مِنْ فِتْنَةِ يَنْصُرُونَ فِرْعَوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ»** لقد ذهب ضعيفاً ، ليشأ عقابه وحده ، ولم يكن له أخوان وأنصار يدفعون عنه عذاب الله ، ولم يكن قادرًا على حماية نفسه ؛ بل كان من الظالمين ، فكشف الله به الغمة ، وأزال الغشاوة عن الأ بصار المفتونة والتفوس المهزومة ، فصار الذين غزوا منزلته وغناه بالأمس القريب يقولون ندماً راسفاً على ما صدر منهم وقد تباهوا إلى خطفهم ، وأفاقوا من غفلتهم : اعجبوا بها الناس من صنع الله ، كيف أن الله سبحانه وتعالى يوضع على بعض عباده الرزق لحكمته ، لا لكرامتهم عليه ، ويضيق الرزق على من يشاء لحكمته ، لا طوائهم عليه ، فالله يعطي ويمتنع ، ويرفع ويخفض وله الحكمة التامة والحكمة البالغة ، وقد روى عن ابن مسعود رضي الله عنه : **«إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ، كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ يَعْطِي الْمَالَ مَنْ يَحِبُّ وَمَنْ لَا يَحِبُّ وَلَا يَعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يَحِبُّ»**^(١)

وهذا فإننا نحمد الله - سبحانه وتعالى - فلولا لطفه بنا وفضله علينا بالإيمان والرحمة لنزل بنا مثل ما حدث لفارون ، لأننا تمنينا أن تكون مثله . لقد أبىنا أن الدين انكرروا نعم الله عليهم فلم يؤمنوا به ورسله لن يفوزوا برضا الله في الدنيا ولا بثوابه في الآخرة .

وتنتهي قصة فارون ؛ لينكشف في جلاه ووضوح أن الفوز دائمًا للمؤمنين الذين استعلوا بربهم عن فتنة المال ، فلم يهونوا ، ولم يضعفوا . وإن الظلالة والزوال لذوي الطغيان بالمال ، كما حدث لفارون .

(١) المستدرك ، كتاب الإنعام ، باب إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يَحِبُّ .

الفوز في الآخرة للمتواضعين المصلحين :

وبعد أن ذكر القرآن ما حدث للمغزوريين والفتونيين بالمال والسلطان من عقاب ذكر ما أعدد الله للمؤمنين في الآخرة من ثواب فقال :

تلك الدار العالية الرفيعة نجعل تعيمها الحال للذين لا يبتغون تكبراً ولا استعلاءً عن الحق ، ولا يظلمون الناس ، ولا يعصون ربهم ، ولقد ثبت في الصحيح ،

عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : «إن الله أوحى إلى أن توادعوا حتى لا ينذر أحد على أحد»^(١) وليس من التواضع هجر الحياة والبعد عن أهل الله للإنسان ، عن عبدالله بن مسعود عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِنْ قَالٍ ذَرْةٌ مِنْ كَبِيرٍ» قال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوابه حسنة ونعتله حسنة ، قال : إن الله جليل يحب الجمال الكبير بطر الحق ، وغضط الناس^(٢) .

«وَالْعَلِيقَةُ لِلْمُتَقْبِلِينَ» الجنة للذين يخشون الله ويتقرن عذابه ، فيقبلون على الطاعات ، ويترون المحرمات ، وفي هذا اليوم الذي يحاسب فيه العباد يتم الجزاء كما وعد الله وكتب على نفسه تفضلاً منه ورحمة أن من أتى بحسنة فإن الله يضاعفها له أضعافاً كثيرة ومن أتى بسيئة فلا يجزي إلا مثلها وتلك من الله رحمة وعدل .

* * *

(١) سان ابن ماجة ، «كتاب الزهد» ، رقم الحديث ٤٣٩

(٢) صحيح مسلم «كتاب الإيمان» ، رقم الحديث ١٣٦

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِرَأْدِكَ إِنَّ مَعَادِ قُلْ
 رَبِّنَ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٌ ⑤
 وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ
 رَبِّكَ فَلَا تَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْكُفَّارِ ⑥ وَلَا يُصْدِنَكَ
 عَنْ هَادِيَتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتَ إِلَيْكَ وَأَذْعُ إِلَيْكَ
 وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ⑦ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَيْهَا
 هَانِرٌ لَا إِنَّهُ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ وَهَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ
 الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ⑧

معاني الكلمات والجمل:

فرض عليك : أنزل عليك القرآن، وأوجب عليك العمل به
 القرآن

لرأدك إلى معاد : لراجعك إلى بلدك «مكة».

ربى أعلم من جاء : ربى أعلم بالمهندي والضلال هل أنا أو أنت؟
 بالمهندي ومن هو
 في ضلال مبين

فلا تكون ظهيرا : لا تكن عونا لهم على ضلالهم ولكن خالفهم ،
 للكافرين وفارقهم .
 وادع الى ربك : وبلغ رسالة ربك .
 ولا تكون من : ولا تترك الدعاء الى ربك ولا تر على هوى
 المشركين .
 له الحكم : له الفضاء النافذ في الخلق .
 واليه ترجعون : واليه مرجعكم جميعا يوم المعاذ .

* * *

الشرح

بشرى وتثبيت للرسول - صلى الله عليه وسلم:

بوجه الخطاب بعد ذلك الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
 وهو في محنة الشديدة القاسية في أثناء خروجه من مكة مطاردا من قومه ،
 وهو في طريقه الى المدينة ، فقد كان باللحفة قريبا من مكة ، ينظر اليها في
 حزن راسى ، وقد تعلق قلبه بها . إنما المشاعر البشرية في صفاتها ونفاثتها
 الصادقة في وفاتها لمهد الطقوس ومهبط الروحى وموطن الذكريات ومقر
 الأهل والصحاب ، ولكن الدعوة أغل وأعز ، يتوجه الخطاب ؛ ليلاقي
 العصامية على هذه المشاعر فتشتت أمام المحتة ، وتزداد قوة أمام الموقف
 ويشره ربه بقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِرَأْدِكَ إِلَىٰ مَعَادٍ »
 إن الذي أنزل عليك القرآن ، واحتضنك به دون غيرك من الناس ،

وفرض عليك العمل به لمن يتركك للمشركيين يستبدون بك ، ويغتلون المؤمنين وإنما سيردك إلى مكة كما أخرجك منها ، وهذا وعد من الله بفتح مكة وعوده - حصل الله عليه وسلم - إليها ظافراً متصرراً .

روى مقاتل : «أنه - عليه الصلاة والسلام - خرج من الغار (حين المحرقة) وسار في غير الطريق خافة الطلب ، فلما أمن رجع إلى الطريق ، وزر بالجحفة بين مكة والمدينة وعرف الطريق إلى مكة ، واشتق إليها ، وذكر مولده ومولد أبيه ، فنزل جبريل - عليه السلام - وقال له : أنت أفاق إلى يلدك ومولدك؟ فقال - عليه الصلاة والسلام - : نعم . فقال جبريل : فإن الله يقول : «إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد»^(١) والأية تصور معجزة للرسول - حصل الله عليه وسلم ، لأنه أخبر عن الغيب وقد حدث . «فُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مِنْ جَاهَةِ يَالْهُدَىٰ وَمِنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» قيل - يا محمد - لهؤلاء المشركين الذين يقولون لك : «إنك لفي ضلال مبين» : رب اعلم بالهادي والضال هل أنا أو أنت؟ ودع الأمر لله فهو سبحانه يعلم المحسن من المسيء وبمحاري كلأ عمله ، وستعلمون من تكون له عاقبة الدار ، ومن تكون له الغلبة والفوز في الدنيا والآخرة . ثم يذكر الله تباري بفضله عليه واختياره للرسالة ، فيقول : إنك - يا محمد - ما كنت تأمل و تتطلع أن تناول النبوة وتحظى بالرسالة ، إنما هو اختيار الله لك دون غيرك من الطامعين المتطلعين إليها وقد علم - سبحانه - استعدادك لتلقي هذا الفيض العظيم ، وهذا القرآن العظيم رحمة من الله لنبيه ورحمة للبشرية بما فيه من تشريع بنظم حياتهم وقيم تسعد بها أرواحهم ، فاشكر ربك على هذا العطاء ولا تكن عوناً للكافرين ، ولكن فارقهم ، ونابذهم فلا تلافق

(١) تفسير الراغبي ج ٢ ص ١١١

بَيْنَ حَزْبِ اللَّهِ وَحَزْبِ الشَّيْطَانِ، وَلَا تَهُمْ عَمَّا يَقُولُونَ، وَلَا تَنْتَقِتُ إِلَيْهِمْ
فَيُصْدِكُ عَنِ الْتَّرْزِلِ اللَّهُ إِلَيْكَ مِنَ الْأَيَّاتِ الْبَيِّنَاتِ، فَهَذَا شَانُ الْكُفَّارِ أَنْ
يَصْدُوَ اصحابَ الدُّعَوَاتِ، وَلَكُنَّ الْمُؤْمِنُونَ لَا تُنْصَرُ فِيهِمْ قُوَى الدُّنْيَا عَنْ عِبَادَةِ
اللَّهِ وَبِهِمْ وَحْيٌ اللَّهُ يَتَلَقَّ عَلَيْهِمْ

نَّمْ أَمْرَ اللَّهِ رَسُولُهُ أَنْ يَقُوِيَ فِي مَوَاجِهَةِ الْبَاطِلِ وَأَنْ يَصْدُعَ بِالْخُنْقِ
وَأَدْعُ مَنْ رَبِّكَ، ادعُ إِلَى تَوْحِيدِ رَبِّكَ وَعِبَادَتِهِ، وَبِلْغَ هَذِهِ الرِّسَالَةِ وَلَا
عَالَىَ الْكُفَّارِ، وَلَا تُرْعِلَ هَوَاهُمْ، فَإِنْرَضَى بِاسْلُوْبِهِمْ وَمِنْجُهُمْ وَلَا تُعِدَ
لِهَا سُوَى اللَّهِ، لَأَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ الْمُتَحْقِقُ لِلْعِبَادَةِ، فَلَا مَعِيدَ بِحَقِّ إِلَّا اللَّهُ،
وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ لِلرَّسُولِ - حَسْنَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِيَزِيدَهُ ثَبَاتًا وَقُوَّةً
أَمَامَ الْمُشْرِكِينَ، وَلِيَعْلَمْ هَذِلَا، أَنَّهُ لَا أَمْلَ في مَسَانِدِ الرَّسُولِ - حَسْنَ اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هُمْ، فَلَا إِسْلَامٌ وَلَا خَصْرَعٌ إِلَّا اللَّهُ؛ لَأَنَّهُ وَحْدَهُ الْبَاقِي
الْدَّائِمُ وَكُلُّ مَا فِي الْكَوْنِ زَانِلٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ» (١)
وَيَسِّقَ وَجْهَ رَبِّكَ دُوَابِلَلِ وَالْأَكْرَامِ (٢)،

«لَهُ الْحُكْمُ» لَهُ الْمَلْكُ وَالْقَضَاءُ النَّافِذُ فِي الْخَلْقِ يَقْضِي بِمَا يَشَاءُ،
وَيَحْكُمُ بِمَا يَشَاءُ، وَلَا يَرْدُ قَضَاءُهُ أَحَدٌ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْبَشَرُ جَمِيعًا يَوْمَ
الْقِيَامَةِ لَا إِلَى أَحَدٍ سُوَاءٌ، فَلَا مَغْرِبٌ مِّنْ فَضَائِهِ، وَلَا مَلْجَأٌ مِّنْهُ.

* * *

سورة «العنكبوت» مكية
وآياتها تسع وستون

تمهيد :

موضوع هذه السورة يدور حول العقيدة من الوحدانية والبعث والحساب، وتحدث في جلاء ووضوح عن ضرورة الإيمان، وسنة الاتلاء للمؤمنين التي تكشف عن أصالته في التفوس فليس الإيمان كلمة ينطق بها المسان، وإنما الصبر على المحن والشدائـد وأداء التكاليف، والسورة تحاطب المؤمنين في مكة وقد كانوا يلقون أقسى أنواع المحن فجاءت السورة لتربيتهم ثباتاً على الحق وصبراً على العذاب.

وتعرض السورة قصصاً للأنبياء السابقين، وتبيّن ما حدث لهم من قوى الباطل التي وقفت في وجه الحق، ثم أخذها الله أخذ عزيز مقتدر.

تحدث السورة عن حسنة الأنبياء فتعرض قصة سرح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب - عليهم الصلاة والسلام - كما تتحدث عن بعض الطفأة من الأمم كعاد، وثمود، وتحدث أيضاً عن بعض المفسدين كيامان، وقارون، وتذكر ما حلّ بظلاّء، جميعاً من عقاب «فَكُلُّا أَخْدَنَا بِذَنْبِهِ» فَنِّهُمْ من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا، إنها القدرة الإلهية التي تحمي المؤمنين من فتن الكفار ومكرهم.

ثم يؤكد الله للمؤمنين بأن الذين عبدوا غير الله اعتمدوا على معبد هزيل واهن، فهو لا وما يعبدون كالعنكبوت الضعيفة التي تخفي بيته من خيوط واهية فهي وما تخفي به سوء.

ثم تحدث السورة بعد ذلك عن معجزة القرآن للنبي - عليه الصلاة والسلام - وهو الأمي الذي جاء بهذا الكتاب المعجز، وهذا من

أعظم البراهين على أنه كلام رب العالمين .

وتحدث السورة أيضاً عن مظاهر القدرة في هذا الكون ، ليهتدي الناس بها إلى الإيمان بالله . وتؤكد في النهاية بعد هذه الرحلة مع المؤمنين والآباء ، إلى تثبيت المؤمنين ، فتبين حزاء الصابرين أمام المحن والمجاهدين بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله وأن الله معهم بحبيهم وبنصرهم مائتوا عمل الحق ونسكوا به : **وَالَّذِينَ جَنَاحُهُ وَأَفْيَا نَهَيْهُمْ سَبَّا
وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلَى الْمُخْرِجِينَ** .

* * *

الآيات من الآية ١ إلى الآية ١٣

من سورة «العنكبوت»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللَّهُ أَحَبَّ النَّاسَ أَن يَرْكُوَا أَن يَقُولُوا إِعْمَانًا
وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ① وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ ②
أَمْ حَبَّ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الْبَيِّنَاتِ أَن يَسْتَغْفِرُوا سَاءَ
مَا يَحْكُمُونَ ③ مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَلَمَّا أَجَلَ اللَّهُ
كُلُّتُّ وَهُوَ أَعْلَمُ الْعَلِيمُ ④ وَمَن جَنَدَ فِيْنَا مَا يُجَنِّدُ
لِنَقِيَّةٍ إِنَّ اللَّهَ لَعَنِّي عَنِ الْعَالَمِينَ ⑤ وَالَّذِينَ إِمَّا
وَعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ لَنْ كَفِرُنَّ عَنْهُمْ مِّثْقَالِ يَمِينٍ وَلَتَجْزِيَنَّهُمْ
أَحَنَّ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ⑥ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَنَ
بِوَلَدَيْهِ حَتَّىٰ وَإِنْ جَنَدَ إِلَّا لِتُشْرِكَ فِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ

عِلْمٌ فَلَا يُطْعَهُمَا إِلَّا مَرْجِعُكُمْ إِنَّمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ هَامَتْ أَعْيُنُهُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنَدْخُلَنَّهُمْ
فِي الصَّالِحِينَ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ هَامَتْ بِاللَّهِ
فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَهُنْ
جَآءَهُ نَصْرٌ مِّنْ رَبِّكَ لَبِقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ

اللَّهُ يَعْلَمُ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿٣﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ
هَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنْفِقِينَ ﴿٤﴾ وَقَالَ اللَّهُنَّ كَفَرُوا بِاللَّهِ الَّذِينَ
هَامُوا أَتَيْعُوا سَيِّئَاتِهِنَّ وَلَتَحِيلَ خَطَبَتِكُمْ وَمَا هُمْ بِخَيْلٍ لَّهُنَّ
مِّنْ خَطَبَتِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَلَّدُونَ ﴿٥﴾ وَلَتَحِيلَنَّ
أَنْقَاطَهُمْ وَانْقَالَأَمْمَاتُ مَعَ أَنْقَاطِهِمْ وَلَبِقُولُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَرَقًا
كَانُوا يَغْتَرِرُونَ ﴿٦﴾

معان الكلمات والجمل :

الْمَلِكُ : هذه الحروف المقطعة للتبيه إلى أنها مادة القرآن
الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى الرَّسُولِ - صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
- وهي ميرة لهم ولكتهم لا يأتون بمثله، لأنَّه من
صَنْعِ اللَّهِ وَذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى إعْجَازِ الْقُرْآنِ .

أَحَبُّ النَّاسِ؟ : أَقْنَى النَّاسُ؟

لَا يَفْتَنُونَ : لَا يَسْتَلُونَ، وَمَنْتَهُونَ .

لِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ : لِيَظْهَرُنَّ صَدَقَتِهِمْ .

صَدَقُوا

الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ : الَّذِينَ يَرْتَكِبُونَ الْمُعَاصِي وَالْمُرْبِّعَاتِ .

أَنْ يَسْقُوْنَا : أَنْ يَفْوَتُونَا، هَلَا نَقْدِرُ عَلَى عِجَازِهِمْ .

سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ : يَشْرِكُونَ مَا يَعْلَمُونَ .

يَرْجُوْنَ ثَوَابَ اللَّهِ : يَطْمَعُونَ بِثَوَابِ اللَّهِ وَجَزَاهُ .

فَإِنْ أَحَلَّ اللَّهُ لَاتِّ : فَإِنْ لَقَاءَ اللَّهُ قَرِيبٌ لِلْإِيمَانِ .

وَمَنْ جَاهَدَ فِيْنَا : وَمَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ بِالصَّابَرِ عَلَى الطَّاعَاتِ وَالْكَفْ عنِ

الشَّهْوَاتِ فَمُتَّفِعَةٌ جَهَادَهُ عَائِدَةٌ عَلَيْهِ .

إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِّيْ : إِنَّ اللَّهَ مُسْتَغْنٌ عَنِ الْعِبَادِ، لَا تَنْفَعُهُ طَاعَةٌ، وَلَا

الْعَالَمُونَ تَنْفَرُهُ مَعْصِيَةٌ .

لِكُفَّارٍ عَنْهُمْ : لِلْمُحْرِنَّ عَنْهُمْ دُنُورُهُمْ

سَبَّابَتِهِمْ

وَلِنَجْزِيْهِمْ أَحْسَنَ : وَلِتَبَيَّنَهُمْ عَلَى أَعْيُّهُمُ الصَّالِحةُ .

الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ

ووَحْيَنَا الْإِنْسَانُ : أَمْرَنَا إِلَيْنَا بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ عَيْنَةٌ
بِرَّ الْدِينِ حَسَنًا
الْإِحْسَانَ .

وَإِنْ بَدَلَا مَا فِي وَسْعِهَا : مَا لَا يَعْلَمُ لَكُمْ بِالْإِهْبَةِ .
مَا لِيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ : إِلَيْهِ مَرْجِعُ الْخَلَقِ جَمِيعًا .
إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ : إِلَيْهِ مَرْجِعُ الْخَلَقِ جَمِيعًا .
الْأَنْدَلُسِ : الْأَنْدَلُسِ فِي زَمَرَةِ الصَّالِحِينَ فِي الْجَنَّةِ
الصَّالِحِينَ .

فَإِذَا أُوذَى فِي اللَّهِ : فَإِذَا أُذْدِيَ فِي اللَّهِ كُونَ لَا حَلَّ إِيمَانَهُ .
جَعَلَ فَتَنَةَ النَّاسِ : جَعَلَ فَتَنَةَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا كَعَذَابِ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ .
كَعَذَابِ اللَّهِ
إِنَّا كَنَّا مَعَكُمْ : إِنَّا كَنَّا مَعَكُمْ إِخْرَاجَ الْمُشْرِكِينَ فِي الدِّينِ نَصْرَكُمْ عَلَى
أَهْدَانَكُمْ .

أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمُ : أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمُ بِمَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ الْخَيْرَاتُ مِنْ خَيْرٍ
مَا فِي صَدَورِهِ أَوْ شَرٌّ مِنْ إِيمَانٍ أَوْ نَفَاقٍ .
الْعَالَمَيْنَ

اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا : اتَّبِعُوا دِينَنَا .
وَلَا حَمْلَلْنَا : وَلَا حَمْلَلْنَا خَطَايَاكُمْ
وَلَا يَحْمِلُنَّ أُنْقَافَهُمْ : وَلَا يَحْمِلُنَّ أُنْقَافَهُمْ وَأَثْمَاهُمْ .
وَالْأَنْقَافَ وَاحِدَهَا ثَقَلَ : وَهُوَ الْحَمْلُ الَّذِي يَرْوَدُ
حَامِلَهُ .

يَكْذِبُونَ : يَكْذِبُونَ .
يَقْتَرُونَ :

الشـرح

المؤمنون أمام الابلاء :

الم : إن انتاج السورة بهذه الحروف يلقي أنظار السامعين ، ويشير اهتمامهم ، فيتبعون إلى ما يلقى إليهم من آيات ، وهذه الحروف وأمثالها تنبئ على إعجاز القرآن ، وذلك أن هذا الكتاب مؤلف من مثل هذه الحروف التي ينظرون منها كلامهم ولكتهم بعجزون أن يزلقوها منها مثل القرآن ، وهذا دليل على إعجاز القرآن واله من كلام الله لا من كلام الإنسان . وال سور التي بذلت بهذه الحروف وأمثالها تتضمن حديثاً عن القرآن إماماً مباشرةً بعدها ، وأما في ثابتاً السورة كما هو الحال في سورة «العنكبوت» هذه ، فقد ورد فيها قوله تعالى : «أَتَلِ مَا أُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ كِتَبٍ» ، «وَكَذَّلَكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَبَ» ، «وَمَا مَنَّتْ تَنْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَبٍ» . ثم تحدث الآيات عن ضرورة الإيمان التي تكشف صدق المؤمنين وثباتهم على الحق فتقول : أيظن الناس أن يتركوا بدون ابتلاء واختبار ، لأنهم قالوا : «آمنا بلسانهم» ؟ لا الذين يكونون هذا القول صادقاً حتى يتعرض أصحابه لامتحان فيثبتوا ، وبخريجوا منه صافية نفوسهم ، قوية عقيدتهم ، وهذه سنة الله في ابتلاء المؤمنين حتى يظهر الصادقون في إيمانهم من الكاذبين .

لقد احترنا المؤمنين السابقين الذين اتبعوا الأنبياء من الأمم الماضية بإشد أنواع الفتن ليكتشف لهم ما يعلمه الله عنهم ، فيحاسبهم عليه . عن خباب بن الأرت قال شكونا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة قلنا له الاشتصر لنا ألا ندعو

الله لنا قال كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه قِبْحَاء
بالنشار فيوضع على رأسه فيشق باشتين وما يُصْدِه ذلك عن دينه ويُعْلِم
بأشدّ المحن مادون لحمه من عظم أو عصب وما يُصْدِه ذلك عن دينه والله
لَيُتَمَّنَ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءِ إِلَى حَضْرَةِ مَوْتٍ لَا يَخَافُ إِلَّا
الله أَوَ الدَّنَبَ عَلَى خَمْه وَلَكُنُوكُمْ تَسْعَجُلُونَ^(١).

وهكذا جاء التثبيت للمؤمنين من الله ورسوله هي مكة وفي كل زمان
يتعرض فيه المؤمنون للأذى والابتلاء على يد الطغاة والكافرين ، ذلك لأن
الإيمان أمانة عظيمة وقيمة غالبة ، ولهم المؤمنون في سمو دائم عن متاع
الدنيا وزينتها ، وهم في استعلاء بهذا الإيمان عن فتنة الفسق وشهوة الجسد .
وتستقبل الآيات مسوخة المجرمين فتقول : أيظن هؤلاء الذين يرتكبون
الإثم والفواحش أن يفوتونا ، أو يفلتوا من عقابنا ؟ خاب ظنهم ، وفسده
تقديرهم ، وهذا تهديد ووعيد للذين خر جوا على حدود الله ، فارتكبوا
المعاصي ، وفتروا المؤمنين .

أما الذين يعلمون في ثواب الله من المؤمنين ، وبصبرون على ابتلاء
الدنيا فإن لقاء الله قريب ، وهو - سبحانه - السميع لا تُحِلُّ عباده ، العليم
بما حوالهم ما ظهر منها وما يخفى . . . وفي ذلك بشرى للمؤمنين ، ليزدادوا
ارتباطاً وثقة برب العالمين . فمن صبر على الفتنة ، وتحمل الشاق ، واستعمل
على الشهوات فاخير له وحده في الدنيا والأخرى ، وإن ينال الله من ذلك
شيء ، لأنَّه سبحانه - مستغن عن العباد فلا تقعه طاعة الطائعين ، ولا تنصره
معصية العاصين . فليطمئن المؤمنون العاملون ، ويشتوا على الحق ، فالجزاء الطيب

(١) سمع البخاري ، كتاب النافق ، رقم الحديث ٣٣٦٢

يتظرون . . ليمحون الله عنهم سماتهم التي يدرت منهم ، وليثبّتونهم على طاعتهم .

وهذه الصورة قاسية من ابتلاء المؤمنين بسوقها القرآن وهو يوصي الآباء بالبر بالوالدين أو وصيّناً لإنبياءَ بِوَالدِّيهِ حُنَّاً وَإِنْ جَنَحَهَاكُمْ لِتُشْرِكُوا بِي مَالِيْسَ لَكَ يَهُءَ عِلْمٌ فَلَا تُطْعِمُهُمَا إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَإِنِّي أَكْنَمْتُ نَعْمَلُونَ . ذكر ابن كثير^(١) «أن الآية نزلت في سعد بن أبي وقاص » وأمه «حنّة بنت أبي سفيان» لما أسلم وكان من السابفين الأولين ، وكان بارأ باسمه قالت له : ما هذا الدين الذي أحدث؟ والله لا أأكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه ، أو أموت فتعمير بذلك أبد الدهر يقال : يا قاتل أمه ، ثم إنها مكثت يوماً وليلة ولم تأكل ، ولم تشرب ، ولم تستظل فاصبحت وقد جهدت ، ثم مكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل ، ولم تشرب فجاء سعد إليها وقال : يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفأـنـفـأـماـتـرـكـتـ دـيـنـيـ ، فكلّي إن شئت ، وإن شئت فلا تأكلني ، فلما أتيت منه أكلت ، وشربت ، فائزـلـ اللهـ هـذـهـ الآـيـةـ أـمـرـاـ بـالـبـرـ بـالـوـالـدـيـنـ وـالـإـحـسانـ إـلـيـهـماـ ، وـعـدـمـ طـاعـتـهـماـ فـيـ الشـرـكـ بـهـ وـهـكـذـاـ اـتـصـرـ إـلـيـانـ عـلـىـ فـتـنـةـ الـقـرـاءـةـ وـالـأـهـلـ ، فـنـهـيـ الـقـرـآنـ عن طاعتها فيما يغضّب الله وأمر بالإحسان فقال :

لقد أمرنا الإنسان أمراً يحب الوفاء به أن يحسن إلى والديه ، ويسرهما ، ويعرف قدرهما من التكريم والاحترام ، فهما سبب وجوده ، ولهم علىه الفضل والإحسان ، ولما كانت القسوة من سمات الأولاد تسيّهم فضل الوالدين عليهم جاء أمر الله للأولاد دون الوالدين ، لأنهما مفطوران على الرحمة والشفقة بالأولاد . ولكن هذه الطاعة لا تكون في الشرك بالله بهما بذلا من جهد ، فلا تستحب لهما ، وإلى الله مرجع الخلق

جميعاً يوم القيمة يفصل بين المؤمنين والكافرين ، ويحازى كلاماً على عمله ،
وهي الآية بشرى لمن برّ والديه واهتدى ، وإنذار لمن عنّ والديه واتّع الردى .

جزاء المؤمنين :

وهذه صورة مشرقة يحفز القرآن بها النقوس ، ويثير لهم ، لتظل
ثابتة على الحق ، فلا تؤثر فيها الفتن ولا تزال منها الشدائـد ، حتى تحظى
بمنزلتها في الآخرة . والذين ثبتوا على الحق ، فآمنوا بهم ، وصدقوا
الرسول وعملوا ما فيه صلاحهم وصلاح إخوانهم المؤمنين ، فجادلوا
بأموالهم ، وأغاثوا الملهوف ، ونصروا المظلوم . هؤلاء يدخلهم الله في زمرة
الصالحين في الجنة ينعمون فيها كما نعموا بصحبتهم في الدنيا ، لقد أفت
بيتهم العقيدة في الدنيا ، وجمعهم النعيم في الجنة .

النافق والابلاء :

وهذه صورة لنقوس هزيلة ضعيفة ، لا تبت أمّا الحن ، ولا تصمد
 أمام الشدائـد ، بل تضعف وتترد عن الإيمان .

ومن الناس من يقول بلسانه : آمنت بالله ظناً منه أنها كلمة خفيفة ،
ليست ذات تكاليف وأعباء ، فإذا صادفته محنـة ، أو نزل به بلاء فأوذى من
الكافرين ، اهتزت القيم في نفسه ، وارتدى عن دينه ، ولو كان مخلصاً
لصبر ، ولكن جعل ما يصيـه من أذى وابلاء سبباً صارقاً له عن الإيمان ،
كمـا أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر ، وشـتان بين أذى يقدر على
مثله البشر وعذاب الله الذي لا يعرف أحد مداره .

هذا موقف النافق عند الشدائـد ، ولكن حين يجيـه نصر الله للمؤمنين
من فتح وغـائم يقول هؤلاء للمؤمنين : إنا كنا معكم إخواناً في الدين

نصركم على أعدائكم فاجعلوا النصيحة في الرحمة نشاطركم الأمن والمال . قبحتكم رب الله الذي لا تخفي عليه خافية : أو ليس الله هو العالم بما انطوت عليه الصدور من إيمان أو نفاق ؟ بل إنه بكل شيء علیم ، وليظهرن الله لعباده المؤمنين والنافدين ، كما قال تعالى : « مَا كَانَ اللَّهُ لِيَبْدُرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَعْرِفُوا الْخَيْرَ مِنَ الطَّيْبِ » ^(١)

من أساليب الكفار لاغواء المؤمنين :

وهذا موقف للكافرين الذين يحاولون رد المؤمنين عن دينهم ، وهو يتكرر في كل زمان ومكان .

وقال الكافرون من قريش لمن آمن واهتدى :

ابعوا ديننا ، واسلكوا طريقنا ، فإن فعلتم ذلك تحملنا عنكم آثامكم وخطايانكم ، ولعلهم قالوا ذلك جرياً على سنتهم وعادتهم القبلية في احتفال العشيرة للدية والتبعية مشتركة فضلاً عن تهكمهم بالجزاء في الآخرة ، فبأيدهم الجواب الذي يقرر المسؤولية الفردية إنهم كاذبون في دعواهم « وما هم بحاملي من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون » . إن هؤلاء الكافرين لا يحملون ذنبهم يوم القيمة ، لأنهم لا يحملون أحد وزر أحد وإن ^٢ندع مُشَقَّةً إلى حلها لا يحملون منه شيء ولو كان دائرياً ^٣ وإنهم لكاذبون فيما يقولون بل إنهم ليحملون أوزارهم وأوزار من أضلواهم كما قال تعالى : « لِيَحْمِلُوا أوزارهم كَامِلَةً يوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أوزارِ الَّذِينَ يُضْلُلُونُهُمْ يَغْيِرُ عَلِيهِمْ » ^(٤) (٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا

ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلاله ، كان عليه من الإثم
مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً^(١)
وليسألن في هذا اليوم سؤال توبيخ وتأنيب عما كانوا يختلفون من
الكذب على الله في الدنيا . وفي ذلك تحذير للمرء من إنجابهم
لإغراء الأشرار الذين يديرون لهم المكائد والفتن ليصرفوه عن دينهم إن
استطاعوا .

* * *

(١) رواه مسلم كتاب العلم . باب : من دعا إلى هدى لوعضلاله . رقم الحديث ٤٨٣١ .

الآيات من الآية ١٤ إلى الآية ١٥
من سورة «العنكبوت»

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فُوحًا مِّنْ قَوْمِهِ، فَلَمَّا
فِيهِمْ الْفَسَرَ إِلَّا تَحْتَيْنَ عَامًا فَأَخْذَهُمْ الظُّوفَانُ وَهُمْ
ظَالِمُونَ ⑯ فَاتَّجَبَنَهُ وَاصْحَابُ السَّفِينةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً
لِلْعَذَابِ ⑰

معاني الكلمات والجمل:

فلَمَّا فِيهِمْ : مَكَثَ بِيَتِهِمْ .
فَأَخْذَهُمْ الظُّوفَانُ : فَاهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِالظُّوفَانِ وَهُوَ الْمَاءُ الْكَثِيرُ .
وَاصْحَابُ السَّفِينةَ : مَنْ رَكَبَ فِي السَّفِينةِ مَعَ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ .

الشرح

تسليمة للرسول - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَتَهْدِيدُ لِلْكَافِرِينَ :

بعد أن ذكر القرآن الكريم كيد الكفار ومحاولة إغواطهم المؤمنين
ذكر صورة للمؤمنين السابقين الذي فتنوا فصبروا وكانتها حلقه متصلة تعر

عن الصراع بين الحق والباطل في كل زمان، ثم اعقب ذلك بذكر الآباء السابقين وصبرهم على المحن والشدائد، وفي ذلك كله ثبيت للمؤمنين على المكاره.

وبدأ بذكر أبي البشر الثاني «نوح» عليه السلام فقال: ولقد بعثنا نوحًا إلى قومه فمكث فيهم تسعين سنة يدعوهם إلى الإيمان بالله - عز وجل - وكانوا عبدة أصنام، فكذبوا، كما يكذب برسالتك مشركون مكة، وهذه المدة الطويلة من عمر الزمن تكشف عن عنت الكفار وصبر «نوح» عليه السلام فلما لم يؤمنوا، بل كذبوا بالحق لما جاءهم أهلكهم الله بالطوفان وهم مصرون على ظلمهم وذلك عدل من الله الذي لا يعاقب الناس مجرد صدور الظلم منهم، ولكنـه - سبحانه - يتزل عقابه على المcriين على الظلم، لأنهم يعيشون في الأرض فساداً، ولا يتغدون فيها صلاحاً. وفي هذه الفحصة عبرة للرسول - صلى الله عليه وسلم - وللمؤمنين، فهي تحذير لهم قائلة: لا تخزن - يا محمد - أنت وأصحابك لما تلقى من أذى الكفار وغزوتهم وكربلائهم، فإن مصير هؤلاء الحري والعقاب في الدنيا والآخرة ومصيرك وأصحابك النصر والنعم والنجاة من الظالمين

* * *

الآيات من الآية ١٦ إلى الآية ٢٧
من سورة «العنكبوت»

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ
ذِلِّكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ⑯ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْ شَيْئًا وَخَلَقُوكُمْ إِنَّمَا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَعْلِمُوكُمْ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ
الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُواهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ⑰ وَإِنْ
تُكَذِّبُوْا فَقَدْ كَذَّبَ أَمْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا
أَلْبَعُ الْمُجْرِمِينَ ⑱ أَوْ لَمْ يَرُوا كَيْفَ يُبَدِّلِي اللَّهُ
الْخَلْقَ ثُمَّ يُبَدِّلُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِسِيرٍ ⑲ قُلْ يُسِرُّوا
فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَا الْخَلْقُ ثُمَّ أَلْهَمَ اللَّهُ يُنْشِي النَّشَاءَ
الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑳ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ
وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ㉑ وَمَا أَنْتُ بِمُعْجِزٍ

فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ
وَلَا نَصِيرٌ ⑭ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَكْتَبُ اللَّهُ وَلِقَاءَهُ
أُولَئِكَ يَسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ هُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ⑮
كَمَا كَانَ جَرَابُ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَفْتُوهُ أَوْ حَرْقُوهُ فَلَنْجَهُ
الَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَنْتَهِ لِقَاءُ الْمُؤْمِنُونَ ⑯

وَقَالَ إِنَّمَا أَنْعَمْتُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ مَوْدَةً بَيْنَكُمْ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَنْكُفِرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ
وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَا وَنَكُرَ أَنَارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ
ثُبُرِينَ ⑰ * فَعَامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ
إِلَى دَيْنِي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑱ وَوَهَبْنَا لَهُ إِنْتَهَى
وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذِرِّيَّتِهِ الْبُشْرَةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ
أَجْرُهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنْ أَصْلَحَهُنَّ ⑲

معاني الكلمات والجمل :

وإبراهيم : وادرك لفomit فضة «إبراهيم» .
واتقوه : خاقوا سخطه وغضبه بآداء الطاعات واجتناب
الماضي .

ذلكم خير لكم : عبادة الله وتقواه خير لكم .
إن كتم نعلمهون : إن كتم تدركون الخير من الشر ، وتفرغون بيتهما .
أوزانا : أصناماً من حجارة .
وخلقون إفكا : تصنعوا كذباً وباطلاً .
لا يملكون لكم : لا تقدر الأصنام أن ترزقكم .
رزقا

لابتغوا عند الله : فاطلبو الرزق من الله وحده .
الرزق

إليه ترجعون : إلى الله مرجعكم يوم القيمة فتحاسبون
كثُبَّ أمم من : كذب أمم قبلكم رسلهم .
قبلكم

وما على الرسول : وليس على الرسول إلا التبليغ الذي لا يغنى بعده
إلا البلاغ المبين شك .
إن ذلك على الله : إن الله قادر على أن يعيده ، بل هو أهون عليه .
يسير

بدأ الخلق : خلق الخلق على كثرتهم وتغاوت هنائهم .
ينشئ النساء : ينشئهم عند البعث نساء أخرى .
الآخرة

إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.
وَمَا أَنْتُمْ بِعَجَزٍ
فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّماءِ
وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ
إِنَّ اللَّهَ مِنْ وَلِيٍّ
لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ خَذَابِهِ
وَلَا يَنْصِرُ
كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ
أَوْلَئِكَ الْجَاهِدُونَ فَنَطَرُوا مِنْ رَحْمَتِهِ
أَوْلَئِكَ يَشْوَى مِنْ
عَذَابِ الْيَمِينِ
إِنْ فِي ذَلِكَ لِآيَاتٍ
لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
الْخَلْقُمْ مِنْ دُونِهِ
مُوَدَّةٌ بِنِعَمِكُمْ الْمُحِبَّةُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
يَخْفِرُ بِعَصْمَكُمْ
بِعَضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ

وماواكم النار : ومصيركم جميعاً جهنم .
فأمن له لوط : فآمن معه لوط، وصدقه .
مهاجر إلى ربِّي : تارك وطني رغبة في رحمة الله بإظهار الدين ،
والتمكّن من نشره .

إنه هو العزيز : إنه القوي الذي لا يبدل من اعتمد عليه، الحكيم
الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها .

وجعلنا في ذريته : جعلنا الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته، وجعلنا
الشّرعة والكتاب الكتب السماوية مازلة على الأنبياء من بيته .
وآتيناه أجره في : وتركنا له الثناء الحسن في جميع الأديان .
الدنيا

وإنه في الآخرة لمن : وهو في الآخرة في عداد الكاملين في الصلاح .
الصالحين

* * *

السرع

إبراهيم - عليه السلام - وأسلوب الدعاء إلى الله:

هذا موقف أبي الأنبياء «إبراهيم» - عليه السلام - بسوقه الله
للرسول - حل الله عليه وسلم - وللدعوة إلى الله في كل زمان ، وفيه بيان
لأسلوب الحادى الذي يخاطب العقل والوجدان ، ويحفز الكافر إلى
الإسلام لرب العالمين ، وفي الآيات تصوير لصلف الكفار وردتهم بالعدوان

على إبراهيم ، ليعلم الدعاة أن الطريق إلى الله محفوف بالمخاطر . نقول الآيات : إن الله - سبحانه وتعالى - يخربك - يا محمد - عن «إبراهيم» عليه السلام حين دعا قومه بأسلوب يتسم باللين والحكمة قائلاً لهم : اعبدوا الله وحده لا شريك له ، واجعلوا لأنفسكم وقایة من عذابه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ، وحب هذا السلوك إليهم ورغبهم في الإقبال عليه فقال : «ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون» فعبادة الله وتقواه فيها الخبر لكم في الدنيا ، لأنها المทาง الحق ، والطريق المستقيم ، وفيها نجاة لكم في الآخرة إن كنتم حقاً تعلمون الخير من الشر ، وفي ختام الآية ما يحذّرهم إلى نفي الجهل عن أنفسهم و اختيار الخير الذي يدعون إليه .

ثم بين فساد ما هم عليه من الضلال ، فقال : تعبدون تماثيل مصنوعة من خشب وأصناماً صنعتموها بأيديكم من حجارة ، فلأنكم بذلك تنشرون باطلأ ، وتفترنون كذلك حين تدعون أنها آلة دون برهان أو دليل ، وتدعون أنها تشفع لكم عند ربكم . إن الآلة المصنوعة لا تقدر أن تدرككم بباب الحياة ، ولا تحقق لكم الأمان ، فهي لا ترزقكم . . وفي ذلك تهكم بهم وأسف لخالهم ، ثم وجههم إلى مصدر الرزق والأمن فقال : اطلبوا الرزق من واهب الأرزاق ، من الله وحده ، فهو القادر عليه دون سواه ، وخصوصه وحده بالعبادة والخشوع له ، واستعدوا للقاءه بالطاعات والشكر على نعمه ، فإنكم ستسألون ، فثوبوا إلى ربكم عابدين شاكرين .

ولما كشف لهم حقيقة الإله الذي يستحق العبادة والشكر هددتهم قائلاً : وإن تكذبوني بعد ما أخبرتكم ببيان واضح وجدة ناصعة ، فقد كذب الكثيرون من قبلكم رسلاً لهم كقوم إدريس ونوح وهود عليهم السلام ، فحلّ بهم ما سنته الله من نجاة المؤمنين ، وهلاك الكافرين ، ولن

يضر ذلك الرسول، أو يحرر شيئاً، فما عليه إلا تلبيغ رسالة ربه بصورة لا
ليس فيها ولا غموض، فلا يبقى معها شك لآخر وليس عليه هداية
الناس.

ظاهر الحياة في الكون والإيمان بالبعث:

وهذا أسلوب آخر يعرضه القرآن الكريم للإيمان بالله وبالبعث
ودليله هذه الآيات والشاهد التي لا تغيب عن ذوي البصر والبصرة في
الكون، وربما لا يحس الناس بها لطول الفترهم لها، ولكن خالقها جعل
وها - رحمة بعباده يطلب إليهم أن يتأملوا ما يشاهدون من خلق الله في
النبات والجنيين وفي الأشجار والثمار وكلها آيات ودلائل ماطعة على أن الله
خلقها من عدم، وهو قادر على أن يعيدها بعد الموت، بل هو عليه -
سبحانه - أيسر وأسهل، وهذا التعبير الإلهي جاء موافقاً لمقاييس البشر،
لأن الإعادة أيسر من البدء في الخلق في تقدير الناس، ولكن البدء
كالإعادة أمام قدرة الله الذي يقول للشيء: كن فيكون.

قل سيروا في الأرض فسترون ما لا تحسون به مما حولكم من خلق
الله، وذلك لأن السير والسفر تجديد للنفس، وتزكية للقلوب لما يرى
المسافر من مشاهد عذبة وجذابة، وتنير مشاعره، فيعدل من سلوكه،
ويعود إلى حالقه، لهذا فإن الله يطلب إلى إبراهيم - عليه السلام - أن
يقول لقومه: انظروا لترى كيف أن الله القدير خلق الخلق على كثرةهم
وتقاوته هيئاتهم واختلاف أسمائهم وألوانهم، وانظروا كيف تبدأ الحياة في
النبات والحيوان والإنسان فكل ذلك شاهد على حدوثها والذي أوجدها
بتقدريته ينتهيها مرة أخرى عند البعث، لأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا

في السراء، وبهذه القدرة العظيمة يعذب من يشاء في الدنيا والآخرة بعدله في حكمه ويرحم من يشاء بفضله، فهو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء، وإليه ترجعون يوم القيمة للحساب وإن يغلو لكم عقاب الله وإن نفروا، أو عبروا في الأرض ولا في السراء، فالكل في قبضته سبحانه، وليس لكم يوماً من يحييكم وينصركم من البلاء والعدايب إلا الله.

والحاددون لا يأتون الله في الكون وفي القرآن هم - وحدهم - الذين يعيشون في قنوط ويساس من رحمة الله؛ لأنهم لم يصلوا قلوبهم بخالقهم وجحدوا لقاءه يوم الحساب، هؤلاء الذين أصلوا أنفسهم، وانكروا فضل الله عليهم، لا أمل لهم في رحمة، لأنهم لم يخافوا عذابه، ولم يرجوا نوافره، وهم عذاب مؤلم في الدنيا والآخرة.

رد الجاحدين والمعجزة الخارقة:

بعد أن أزم إبراهيم - عليه السلام - قومه الحجة وهو يسوق لهم البراهين الدالة على الإيمان بالله وبالبعث والجزاء، لم يجدوا سبيلاً يدافعون به، فردوها بحواب يكشف طغيانهم وتبجحهم. قال بعضهم لبعض: اقتلوه، أو أضرموا النار، وألقوا فيها، وقد ظنوا أن إبراهيم فرد أعزى لا يستطيع مقاومتهم ولكن القدرة الإلهية وهي التي ترعى المظلومين وتحميهم تتدخل، لتحبط مكيلاتهم، فأتوجه رسوله من النار هل جعلها برداً وسلاماً فَلَمَّا يَتَأْرُكُونَ كُوفِيْ بِرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١) إن في إنجاتنا إبراهيم من النار للدلائل قاطعة وبراهين ساطعة على قدرة الله لمن وبه الله الاستعداد للهدي والإيمان، فيصدق بوجود الله، ولا يعبد سواه.

ولما أتى الله رسوله من النار قال لقومه مؤنباً وموياً: إنكم
عبدتم الأولان من دون الله لا اعتقاداً ولا اقتناعاً، بل إنما يجامل بعضكم
بعضاً، لتذوم الآلقة واللحمة بينكم في هذه الحياة، ثم في الآخرة تقلب
الصورة، فتصبح هذه الصدقة والآلقة عداوة وبغضنا، يوم ينكح
التابعون للمتبوعين ويترأ الأولياء من الأولياء، لأن صداقتهم في الدنيا لم
تكن لله كما قال تعالى: «**الْأَخْلَالُ يُوْمَئِلُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ** عدو إلا
الْمُتَّقِينَ»^(١)، ويومئذ لا يقدح تذكرهم أو سخطهم، فالنار التي أرادوا أن
يجرونها بها إبراهيم - عليه السلام - فأنقذه الله منها هي مأواهم ونهياتهم
وما لهم اليوم من ناصر ينصرهم، ولا من قد يدفع عنهم عذاب الله.

عطاء الله لإبراهيم - عليه السلام:

وتتصف الآيات موقف أحد المتدبرين لقدرة الله وهو شاهد إنعام
الله إبراهيم من النار، إنه «لوط» ابن أخي إبراهيم الذي كان أول
المؤمنين به والمصدقيين رسالته، لما رأى من الآيات الباهرة،

ولما بذل إبراهيم - عليه السلام - جهده في الدعوة إلى الله ولم يزمن
به إلا ابن أخيه «لوط»، خرج من وطنه «كروي» من سواد الكوفة إلى
فلسطين والشام تنفيذاً لأمر الله، مبتغيًا إظهار الدين والتمكن من الدعوة
له قائلًا في ثقة المؤمنين بربهم: إن رب هو العزيز الذي لا يبدل من اعتمد
عليه، بل يحميه من كيد الكاذبين، كما حدث له - عليه السلام - حين
أنجاه ربنا العزيز من النار، وهو سبحانه الحكيم في تدبيره وفي صنعه.

(١) سورة الزمر / ٦٧

وقد منَ الله على إبراهيم جزاءً جهاده وإنْلاصه في الدعوة الحية
بغرض من العطاء جزيل .

فقد منحه ولدًا صالحًا هو إسحق، ووهب إسحاق يعقوب، كما
قال تعالى: «فَلَمَّا أَعْتَرْهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ وَكَلَّا جَعَلْنَا تِبِّعًا» (١٢) .

كما حصل الله نبيه إبراهيم بفضل عظيم، فجعل النبوة في ذريته إلى
أن يرث الله الأرض ومن عليها، وجعل الكتب الساوية منزلة على بنيه،
ومتحه الله في الدنيا ما يستحق من أجر على جهاده وإنلاصه في نشر
الدعوة، فحسن ذكره في جميع الأديان، وسيظل له الذكر الطيب في القلوب
وعلى الآلسنة، فالمسلمون يقرنون الصلاة عليه بالصلاحة على مائة الأنبياء،
ومن حليل الأجر وعظيم الجزاء أن جعل الله النبوة في ابنائه إلى خاتم
الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام - أما في الآخرة فقد جعله الله من زمرة
الكمالين في الصلاح والتقوى الفائزين بالدرجات العلوى من رب العالمين،
ووهذا الفيض الإلهي يكون إبراهيم - عليه السلام - قد نال الفوز والنعم
في الدارين .

* * *

وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنْ كُوْنَتِنَّ الْفَنِيْحَةَ مَا بَقَيْكُمْ
بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَنْكَبُوتِينَ ⑧ إِنْ كُوْنَتِنَّ الْفَنِيْحَةَ مَا بَقَيْكُمْ
وَنَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَنَأْتُونَ فِي نَادِيْكُرِ المُنْكَرِ فَكَانَ
جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا يَعْدَابَ اللَّهِ إِنْ
كُنْتَ مِنَ الصَّدِيقِينَ ⑨ قَالَ رَبِّيْنَا أَنْصُرْفِ عَلَى الْقَوْمِ
الْمُقْسِدِينَ ⑩ وَلَعَلَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى
قَالُوا إِنَّا مُهِلِّكُوْنَا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا
ظَلَّمِينَ ⑪ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا أَعْنَّ أَعْلَمُ مَنْ فِيهَا
لِتُبَيِّنَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَهُ كَانَ مِنَ الْغَيْرِينَ ⑫
وَلَعَلَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا بِنِيَّةَ يَهِيمَ وَضَاقَ يَهِيمَ ذَرْعَا
وَقَالُوا لَا تَحْفَ وَلَا تَخْرُنْ إِنَّا مُنْجِلُوكَ وَاهْلُكَ إِلَّا أَمْرَأَتَكَ

كَانَتْ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢﴾ إِنَّا مُنْزَلُونَ عَنِ اهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
 وَجَزَاءُهُمُ السَّعَادُ إِيمَانُهُمْ أَكَلُوا يَنْفَسُوْنَ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ تَرَكُنا
 مِنْهَا آيَةً بَيْنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

معاني المفردات والجمل:

- ولوطا : وادْكُرْ رَسُولَنَا الْوَطَّا - عَلَيْهِ السَّلَامُ .
- إِنْكُمْ لَتَأْتُونَ : إِنْكُمْ لَتَرْتَكُبُونَ الْفَعْلَةَ التَّنَاهِيَةَ فِي الْقَبْحِ، وَهِيَ الْمُوَاطِلَةُ .
- وَنَقْطُعُونَ التَّبِيلَ : تَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ عَلَى الْمَارِةِ بِالْقَتْلِ وَأَعْدَدُ الْمَالِ .
- وَسَأَتُونَ فِي سَادِيكُمْ : وَنَفْعَلُونَ فِي مَجْلِسِكُمْ وَمِنْدَائِكُمْ مَا لَا يَلِيقُ مِنْ أَنْوَاعِ الْمُنْكَرِ جَهَارًا .
- الْمُنْصَرِيَّ عَلَى الْقَوْمِ : انْصَرْنِي عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ابْتَدَعُوا الْفَرَاخْشَ الْمُقْسِدِينَ .
- رَسْنَا : الْمَلَائِكَةُ .
- بِالْبَشْرِيَّ : مِبْشَرَةٌ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ .
- هَذِهِ الْقَرْيَةُ : هِيَ «سَدُوم» وَهِيَ قَرْيَةٌ قَوْمٌ الْوَطَّا .
- كَانُوا ظَالِمِينَ : كَانُوا أَهْلَهَا مَعْنَيِّينَ فِي الظُّلْمِ وَالْفَسَادِ .
- مِنَ الْغَافِرِينَ : الْبَاقِينَ فِي الْعَذَابِ .
- سَيِّدُ الْجَمِيعِ : حَزَنٌ بِسَبِيلِهِمْ .

وَضَاقَ بِهِمْ ذِرْعًا : وَضَاقَ بِهِمْ صَدْرًا ، وَعَجَزَ عَنْ تَدْبِيرِ شَؤُونِهِمْ .
رِجْزًا مِنَ السَّيِّءِ : عِذَابًا مِنَ السَّيِّءِ .
بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ : يَسْبِبُ فَسَقِهِمُ الْمُسْتَمِرِ .
وَلَقَدْ تَرَكَنَا مِنْهَا آيَةً : وَلَقَدْ تَرَكَنَا مِنْ هَذِهِ الْفَرِيقَةِ عَلَامَةً بَيْنَةً وَاضْحَىَ .

بِيَتَةٍ

لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ : لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ، فَيَتَحَظَّوْنَ .

* * *

الشرح

لوط - عليه السلام - وعقاب المنحرفين :

هذه قصة لوط - عليه السلام - وقد هاجر مع «إبراهيم»، عليه السلام - تنفيذاً لأمر الله ، وقد صاهر إحدى القبائل التي كانت تعيش على ضفاف البحر الميت وكانت تسكن مدينة «سدوم». يسوق القرآن هذه الفكرة ليكشف عن جريمة من الشدة لم تعرف في التاريخ من قبل فيقول:

اذكُرْ - يَا مُحَمَّدَ - لِقَوْمِكَ (الوَطَّاء) - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حِينَ أَرْسَلَنَا إِلَى أَهْلِ (سَدُوم) - وَقَدْ صَاهَرُوكُمْ وَعَاشُوكُمْ - فَصَارُوكُمْ أَهْلَهُ - وَلَكُمْ رَفْضُ سُلُوكِهِمْ وَجُرْيَتِهِمْ - الَّتِي لَمْ يَقْرَفْهَا أَحَدٌ قَبْلَهُمْ - فَقَدْ كَانُوكُمْ يَأْتُونَ الذِّكْرَ بِدَلَالَةٍ مِنَ الْإِنْسَانِ الْلَاذِي خَلَقَهُ اللَّهُ لِلرِّجَالِ - وَهَذِهِ الْفَعْلَةُ الْقَبِيحةُ تَنْفَرُ مِنْهَا النُّفُوسُ الْكُرْبَيْةُ - وَتَشَمَّسُ مِنْهَا الطَّبَاعُ الْمُسْتَقِيمُ - وَهَذَا أَنْكَرُوهَا عَلَيْهِمْ - ثُمَّ كَشَفُ عَنْهَا فِي وَضْوِيَّ قَاتِلًا : إِنَّكُمْ تَأْتُونَ الذِّكْرَ - وَتَسْتَمْتَعُونَ بِهِمْ - وَهَذَا

مخالف للفطرة التي تدعو إلى الاستمتاع بالشأن بينما من ذلك خلق آخر يكفل امتداد الحياة بالليل، كما انكر عليهم قطعهم الطريق، ليهوا المال ويروعوا المارة، ويعتدوا عليهم، ويقتلوهم، كما انكر عليهم ما كاتروا يفعلون في ناديه من المنكر جهاراً، لا يخجل بعضهم من بعض.

فكان رد هؤلاء على النصح والإرشاد أن قالوا في سخرية: إن كن صادقينها تهدى به من انتقام الله ونزول عذابه بما ثنا به، ولما يشن من إصلاحهم واستقامتهم على الحق جاء إلى ربه قائلًا: رب انتقم منهم، وظهر الأرض من رجمهم فقد أصرروا على ارتكاب الفواحش، وأغرقوا في الغي والفساد، فاستحباب الله دعاءه، وأرسل جنوده لتنفيذ العقاب. وفي أثناء ذلك سروا بـإبراهيم - عليه السلام - بشروه بولد صالح من زوجته سارة وكانت عقيماً، لقد بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق، ومن وراءه إسحاق يعقوب، ثم أبانوا له عن المدف الثاني لجنهما قائلين: جئنا لنهاك قرية قوم لوط، لأنهم ترددوا في الفساد وارتكبوا المعاصي، وكذبوا (لوطًا) - عليه السلام -. فرد إبراهيم مشفقاً على ابن أخيه الصالح قائلًا: إن في هذه القرية نبي الله (لوطًا)، فردت الملائكة مطمئنة إبراهيم - عليه السلام -. وبائهم أعلم به وبين معه من المؤمنين فقالت: لتجنيه ومن معه من المؤمنين إلا زوجته فلماها من الهالكين، لأنها كانت تقر جندهم وأنحرافهم، وتماثلهم على الكفر، ثم سار الملائكة فدخلوا على «لوط» في صورة شباب حسان الوجه فحزن بسيهم، وخاض حسرة من عجنهما، لأنهم حسان الوجه، فخاف أن يقصدهم أحد بسوء فكثروا الله عن حقيقتهم، وأخبروه برسالتهم وهو في هذا الحزن وذلك الفسيق قائلين: لا تحف ولا تخزن إنما منحوك من العقاب الذي سيحل بقومك، وستجي

اتباعك الذين آمنوا بك وصدقوك إلا زوجك قيامها من الماكين ، لأنها
كانت تواضفهم على حرمتهم . إنما متزلون عليهم عذاباً شديداً جزاء على
خاديمهم في البغي والفسق . لقد دمرهم الله بامطار تحمل حجارة ملوثة
بالطين ، وزلزلت الأرض من تحتهم ، فابتلعتهم في ياطتها ، وجعل الله
مكانها بحيرة ملحة «البحر الميت» ، ولقد أبقى الله من هذه القرية علامه
واسحة هي آثار لمنازعهم الخربة ، لتكون عبرة لمن يتفكر ويتدبر عبر القرون .
وكان هذا هو مصير الشجرة الخبيثة التي تؤدي ولا تشعر فلم تستحق
إلا الإبادة من الوجود .

* * *

وَإِلَى مَدِينَةِ أَخَاهُمْ
 شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُومُ أَغْبَدُوا اللَّهَ وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ
 وَلَا تَعْتَرُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ فَكَذَبُوهُ فَاخْدَتْهُمْ
 الْأَرْجَفَةُ فَاصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِشِينَ ﴿٤١﴾ وَعَادُوا وَمُرْدَادًا
 وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَكْتَبَتِهِمْ وَزِينَ لَهُمْ أَشْيَاطُ
 أَخْنَاثِهِمْ فَصَدَهُمْ عَنِ الْبَيْلِ وَكَانُوا مُتَبَصِّرِينَ ﴿٤٢﴾
 وَقَرْبَوْنَ وَقِرْهَوْنَ وَهَنْمَنْ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيْتِ
 فَأَنْتَكُرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَيِّفِينَ ﴿٤٣﴾ فَكُلُّا
 أَخْدَنَا بِذَنِيهِ فَهُنْمَنْ مِنْ أَرْمَلَنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مِنْ
 أَخْدَنَهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مِنْ خَفَنَا بِهِ الْأَرْضُ وَمِنْهُمْ مِنْ
 أَغْرَقَنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسُهُمْ
 يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

معان الكلمات والجمل:

وإلى مدين : وأرسلنا إلى قوم «مدین» .
وارجو الآخر : وحقروا عقاب الله الشديد في اليوم الآخر .
ولاتعثوا في الأرض : ولا تسعوا بالإفساد في الأرض .

مُفْسَدِين

فأخذتهم الرّجفة : فأهلكهم الله بزلزال مدمرة .
فاصحوا في ذارهم : فأصبحوا هلكى ياركين على الركب ميتين .
جائرين

وقد نُسِّ لكم من : وقد ظهر لكم آياتي في هلاكهم .
مساكِهم

وزين لهم الشيطان : وحسن لهم الشيطان أعمالهم القبيحة من الكفر
أعمالهم والمعاصي .

فصلّهم عن : فمنعهم عن طريق الحق .
الشّيْل

وكانوا متّحصرين : وكانوا عقلاً متمكّنً من النظر والاستدلال .
وقارون وفرعون : را ذكر - يا محمد - لقومك قارون وفرعون وهامان
وهامان وما كان منهم ، وما حدث لهم .
ولقد جاءهم موسى : جاءهم موسى بالحجج الظاهرة .
بالبيّنات

فاستكرووا في : فاستكرووا عن عبادة الله وطاعته .
الأرض

وما كانوا سابقين : وما كانوا فائتين الله ، ولا هاربين من عقابه .

فَكُلُّا أَخْذَنَا بِذِنْبِهِ : فَكُلُّا أَهْلَكَنَا بِذِنْبِهِ .
 فَمِنْهُمْ مِنْ أَرْسَلْنَا : فَمِنْهُمْ مِنْ عَاقِبَنَا بِرِيحٍ مَدْمَرَةٍ تَلْقَى الْحَجَارَةَ
 عَلَيْهِ حَاصِبَاً عَلَيْهِمْ كَفُومٌ (الوط)،
 وَمِنْهُمْ مِنْ أَخْذَلْنَا : وَمِنْهُمْ مِنْ جَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ أَخْمَدَتْ أَصْوَاتِهِمْ
 الصَّيْحَةَ وَحْرَكَتْهُمْ (كَثُورَة)،
 وَمِنْهُمْ مِنْ خَسَنَا : وَمِنْهُمْ مِنْ ابتَلَعْتَهُ الْأَرْضُ وَمَعَهُ أَمْلَاكُهُ وَهُوَ
 بِالْأَرْضِ قَارُونَ،
 وَمِنْهُمْ مِنْ أَغْرَقْنَا : وَمِنْهُمْ مِنْ أَهْلَكَنَا بِالْغَرْقِ كَفُومٌ نَوْحٌ وَفَرْعَوْنٌ
 وَجِنْوَهُ .
 وَمَا كَانَ اللَّهُ : وَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَهْلِكَهُمْ بِغَيْرِ جُرمٍ أَفْزَعُوهُ،
 لِيَظْلِمُهُمْ
 وَلَكِنْ كَانُوا : وَلِكُنْهُمْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ، فَكَفَرُوا بِرِبِّهِمْ فَلَا سَتَحْفَدُوا
 أَنفُسَهُمْ بِظَلَمِهِنَّ الْمَلَائِكَةَ .

* * *

الشرح

مواقف وعبر :

ويستمر القرآن - مخاطباً أهل مكة - فيعرض في المجاز صوراً
 متعددة للمكذبين بالرسل ولللغاء والفسادين، ويكشف في حاله ما حل
 بهم من عقاب، لكي يعبر مشركو مكة وغيرهم فيتحببوا إلى ربهم،
 ويستقيموا على الحق، فلا يتعرضوا لسخط الله وعذابه، وبدأ الآيات

يذكر موقف «مدبن» مع «شعب» - عليه السلام - فتقول :
وذكر قومك - يا محمد - أنا أرسلنا شعيباً إلى «مدبن» فقال لقومه
ناصحاً : اعبدوا الله وحده ، وقدموا له الطاعة ، وابتغوا بها الجزاء في
الآخرة ، ولا تنسدوا في الأرض بالبغى والعدوان ، فتروّعوا المسافرون
للتجارة ونقطعوا عليهم الطريق ، وتتفصّل الكيل والميزان لتأكلوا مالاً
حراماً ، ولكتهم لم يستجيبوا ، وأصرّوا على كفرهم وطغيائهم ، وكذبوا فيما
بلغتهم عن ربهم ، فأهلتهم الله ببرقة عظيمة زلزلت بلادهم وبصيحة
مدوية ، أسقطت قلوبهم ، وأخرجتها من الخاجر ، فأصبحوا هلكى
باركين على الركب ميتين ، وهي صورة تصور فزعهم وذلتهم حين نزل بهم
عذاب الله جزاء ما كانوا يفعلون .

وهذه صورة تحكي مصرع عاد وثمود ، وعاد كانت تسكن
بالأحاف في جنوب الجزيرة بالقرب من حضرموت ، وثمود كانت تسكن
بالمجمر في شمال الجزيرة بالقرب من وادي القرى ، وفي إيجاز معجز تقص
الآيات هلاكهم فتقول :

- وذكر قومك - يا محمد - أنا أهلكا (عاد) قوم «هود» - عليه السلام -
بريح صرصر عاتية ، وأهلكتنا «ثمود» قوم « صالح » - عليه السلام - بصيحة
مدمرة وهذه منازلهم معروفة لكم ، لأنكم ترون عليها وأنتم مسافرون
للتجارة في رحلتي الشتاء والصيف ، لقد زين لهم الشيطان أعيالهم السيدة
من الكفر والمعاصي ، فرأوها حسنة ، فمنعهم عن طريق النجاة الذي يهدّهم
إلى الإيمان بالله ، وقد منحهم الله عقولاً لترشدهم إلى الحق ، فيؤمنون
بأنبيائهم ، ولكتهم لم يفعلوا فاستحقوا العقاب .

ولقد أهلكنا «قارون» صاحب الكنوز الكثيرة الذي لم يستجب
لنصح ذوي الرشاد من قومه فبغى ونجر.

وأهلكنا «فرعون» الذي طغى ، وقتل الذكور من بنى إسرائيل ،
وسخر بعضاهم . وأهلكنا «هامان» وزير «فرعون» المدير لكتائبه، المعين له
على ظلمه وبطشه . هؤلاء أرسلنا إليهم «موسى» - عليه السلام - بالمعجزات
الباهرة التي تدل على صدق رسالته ، فاستكثروا ، وأبوا أن يؤمنوا ، فما
كانتوا ليقنعوا أو يهزعوا . بل كنا مقتدرین عليهم ، فأنزلنا بهم الملاك .

عدل الله :

هؤلاء جميعاً نزل بهم حكم الله العادل . فعاقبنا كلًّا منهم على قدر
جرائمته . فقوم «لوط» سلطنا عليهم ريحًا مدمورة تحمل حجارة قاتلة ، وفُرِّجَتْ
«ثِمود» أرسلنا عليهم صيحة أخمدت أصواتهم ، وقضيت عليهم ،
«وقارون» خسفنا به وبآلافه الأرض فغاب فيها بعد أن طغى ونكر
فوقها ، وأغرقنا قوم «نوح» بالطوفان ، كما أغرقنا «فرعون» «وهامان»
وجنودهما ، وقد استحق هؤلاء جميعاً العقاب لما ارتكبوا من جرائم وأذى ،
فلم يكن الله ليهلكهم بدون ذنب ، وما كان الله ليظلمهم وهو الحكيم
ولكته - سبحانه - أهلكهم بذنوبهم ، فقد كذبوا الرسل ، وبحدوا نعم
الله عليهم ، فلم يؤمنوا ، ولم يشكروا ، بل كفروا وطغوا فنالوا جزاءهم
وطهبت الأرض من فسادهم ، فاعتبروا أيها المشركون .

* * *

مَثْلُ الَّذِينَ أَخْنَوْا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ
 كَمِيلُ الْعَنْكُبُوتِ أَخْدَثَ بَيْتًا وَإِنْ أَوْهَنَ الْبَيْتَ لَيْتَ
 الْعَنْكُبُوتُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ① إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ
 مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْغَرِيرُ الْحَكِيمُ ② وَتَلَقَّ
 الْأَمْثَالُ نَصِيرًا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ ③
 خَلَقَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَةَ
 لِلْعُوْمَيْنِ ④ أَتَلْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ
 الصَّلَاةَ إِنَّ الْعَصْلَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ
 اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ⑤

معاني الكلمات والجمل :

أولياء : أصناماً يعبدونها ، ويعتمدون عليها .

أوهن البيوت : أضعف البيوت وأحقرها .

وهو العزيز الحكيم : وهو العزيز في انتقامه، الحكيم في تدبير خلقه.
نضر بها للناس : نبيتها للناس .
وما يعقلها إلا : وما يدركها إلا الراسخون في العلم .

العاللون

بالحق : حكم وقواته، لا للمعبت والمهو .
إن في ذلك لآية : إن في خلق السموات والأرض دلالة للمعذقين
للمؤمنين بوجود الله ووحدانيته .

اتل ما أوحى إليك : اقرأ ما أنزل عليك من القرآن قراءة فهم وتدبر .
من الكتاب

واقم الصلاة : وادِّ الصَّلَاةَ عَلَى الْوَجْهِ الْقَيْمِ .
عن الفحثاء : الفعلة القبيحة .

والنكر : كل معصية .

ولذكر الله أكبر : ولذكر الله أكبر من كل شيء في الدنيا .
ما تصنعون : ما تعملون من خير أو شر .

الشرح

الاعتماد على غير الله هو ان وخران :

بعد أن ذكر - سبحانه وتعالى - أنه أنزل حكمه العادل على الذين
ظلموا أنفسهم ، فكذبوا الرسول ، وأفسدوا في الأرض ، فكان جراوهم
الهلاك والدمار ، ساق مثلاً يصور حال هؤلاء المشركيين وما يعبدون فقال :
مثل الذين اخذلوا الأصنام والأوثان آلهة يختسرون بها ، ويسرجون
نصرها عند الشدائـد والمحن كمثل العنكبوت الضعيفة التي اتخذت لنفسها

بيتاً ضعيفاً واهياً، لا يدفع عنها الحر والبرد، ولا يرد عنها يد العابثين، وكذلك هؤلاء المشركون اخْدُوا الأَهْمَام ملائِقاً ونَصِراً واعتمدوا عليها، فلم تفعهم حين نزل بهم أَهْلَاك، لأنَّهُمْ كفروا بِخَالقِ الْكُوْنِ ومَصْرِ الْأَمْرِ وَالرِّجَاءِ، لَقَدْ جَهَلْتُمْ هؤلاء المشركون هذه الحقيقة «وَإِنْ أُوهِنَّ الْبَيْوَتُ لَيْتَ أَعْنَكُوْتُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُوْنَ»، ولو كانوا يعلمون أن أولئك هم لا يملكون صرف الأَدْيَ عنْهُمْ، كما لا يستطيع بيت العنكبوت أن يحميها ما عبادوْهُمْ، إنَّ اللَّهَ - وَحْدَهُ - يَعْلَمُ حَقْيَقَةَ هَذِهِ الْأَهْمَامِ لَا يَخْفِي مِنْ يَلْعَبُ إِلَيْهَا، ولا تدفع الأَذى عنْ نَفْسِهَا فَهُمْ وَمَا يَعْمَلُونَ كَعْنَكُوْتٍ تَخْتَمِ بِهَا صُنْعٌ مِّنْ حَيْوَاتٍ ضَعِيفَةٍ وَاهِيَّةٍ، فَهُنَّ وَمَا تَخْتَمِ بِهِ سَوَاءٌ.

إنَّ هَذَا الْمَثَل يُوقِطُ الْغَافِلِينَ، وَيُزِيلُ الْغَشَاوَةَ عَنْ قَلْوَهُمْ، فَيَعْلَمُوْنَ أَنَّهُ لَا قُوَّةَ فِي هَذَا الْكُوْنِ إِلَّا اللَّهُ، فَلَا إِيمَانَ إِلَّا بِهِ سَحَابَةُ، وَلَا عِبَادَةَ إِلَّا لَهُ، فَهُوَ - جَلَّ وَعَلَا - الْعَزِيزُ فِي مُلْكِهِ، الْحَكِيمُ فِي صُنْعِهِ وَتَدْبِيرِهِ، إِنَّ هَذِهِ الْأَمْثَالَ الَّتِي يَسُوقُهَا الْقُرْآنُ لِلنَّاسِ جِيْعاً لَا يَدْرِكُ حَقْيَقَتَهَا، وَلَا يَعْلَمُ سُرُّهَا إِلَّا الَّذِينَ تَدْبِرُوهُ، وَاهتَدُوا إِلَيْهَا، وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ أَوْدَعَ سُرَّهُ وَقَدْرَتَهُ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَى هَذِهِ الْعَسْوَةِ مِنَ الْإِبْدَاعِ وَالْإِنْقَاصِ؛ لِتَكُونَ آيَةً لِلْمُهَدِّدِينَ بِوْجُودِ اللَّهِ، لَا يَنْهَا الَّذِينَ يَدْرُكُوْنَهَا بِمَا وَهَبَهُمُ اللَّهُ مِنْ سَلَامَةٍ فَطَرَةٍ، وَيَغْذِي بَصِيرَةً وَقُوَّةً إِدْرَاكٍ.

تسليمة للرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

خاطبَ اللَّهُ رَسُولَهُ مُحَمَّداً - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: «أَتَلْمَّ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ» أَفْرَا - يَا مُحَمَّدَ - هَذَا الْقُرْآنُ فَهُوَ مَعْجَزَةُ رَبِّكَ،

روحجته على الناس وهو طريق الرشاد والأمن ومهد العلمانية والرجاء ،
فتقرب إلى الله بتلاوته ، ودم على أداء الصلاة في خشوع وخضوع ف فهي
حایة من كل شر ووقاية من كل قبيح ، لأنها اتصال بالله يخجل صاحبها ،
ويستحب أن يرتكب ذنوبًا يلقي الله بها ، ولهذا كان أداؤها خمس مرات
حتى تعصم صاحبها من النزوع إلى الهوى وتحصنه من غواية الشيطان ،
وتshield أزره أمام الشدائد والمحن ، وهي ذكر الله ، وذكر الله أكبر من كل
قوة ومن كل هوى ، ففيها النجاة والفوز في الدنيا والآخرة ، والله يعلم ما
يصنع الناس من خير أو سوء ليجازيهم أكمل الجزاء .



• أودع بمركز المعلومات التربوية تحت رقم ٤٦٧ بتاريخ ٣/٥/١٩٨٩ م

طبع في مطبخ دار السياسة